تقديم الحوارات

يضم هذا القسم من المجلد الراهن ستة حوارات أُجريت معى خلال الفترة الممتدة من شهر أبريل سنة ١٩٧٤ إلى شهر أبريل سنة ٢٠٠٠، أى فيما يزيد على خمس وعشرين سنة، تم نشرها فى حينها فى عدد من الصحف المصرية، والعربية، والدوريات الغربية. وقد رأيت أن يكون ترتيب تقديمها فى هذا المجلد مطابقا للترتيب الزمنى الذى نُشِرَت به أصلا، لأن هذا أحرى أن ييسر على القارئ استيعاب ما قد يستشفه من علاقات بين هذه الحوارات بعضها وبعض، خاصةً إذا كانت هذه العلاقات مترتبة على التسلسل الزمنى للنشر، وما أحاط بهذا التسلسل من أحداث وملابسات اجتماعية. وجدير بالذكر فى هذا الصدد أننى عندما كنت أتحدث فى ثنايا هذه الحوارات لم يكن يدور فى ذهنى أننى سوف أجمع بينها فى كتاب أنشره فى مُقبل الأيام. وهذه ملاحظة توثيقية على جانب كبير من الأهمية لأنها تعنى أن الآراء والتوجهات والمعانى التى انطوت عليها هذه الحوارات تعبّر بصدق عما كان يرتسم فى ذهنى فى لحظات التعبير عنها، بغض النظر عما يمكن أن يبدو الآن من اتساق أو تباين بين حوار بعينه وحوار آخر. وجدير بالذكر أيضا أننى أثبتُّ مع كل حوار تاريخ نشره والصحيفة أو الدورية التى نُشر بها. وهذه كذلك ملاحظة توثيقية لابد منها.

أما بعد . .

فثمة سؤال يفرض نفسه فى هذا السياق:

ـ لماذا تُنشر هذه الحوارات وأمثالها؟

هناك عدد من الإجابات يطرح نفسه عن هذا التساؤل.

توجد أولا الإجابة التى ترتبط ارتباطا مباشرا بالمضامين المعنوية التى وردت فى هذه الحوارات، وخلاصتها تقديم رأى الكاتب ومعلوماته فيما يتعلق بالموضوعات

التى أثيرت حولها الحوارات؛ كالرأى فى الوقاية من الاضطرابات النفسية مثلا، وكيف تكون هذه الوقاية (الحوار الأول)، والبحث العلمى فى ظل الظروف السائدة فى مجتمعاتنا العربية الحديثة (الحوار الثانى)، والوزن النسبى لمشكلة تعاطى المخدرات فى مجتمعنا المصرى (الحوار الرابع). . . إلخ.

ثم هناك عدد من إجابات أخرى أقل من ذلك ارتباطا بما يمكن أن نسميه المضمون الصريح للحوار. ولكنها أشد ارتباطا بما يمكن أن نطلق عليه المضمون الكامن للحوار؛ من هذا القبيل مثلا الكشف عن المخطَّط الأساسى الذى تنتظم حوله الحياة الأكاديمية لصاحب هذه الحوارات؛ فقد سُئلتُ فى أكثر من حوار مجموعة من الأسئلة كانت تدور حول الكيفية التى أمكن لى بها الاستمرار فى متابعة البحث العلمى فى مجال بعينه (كالمخدرات مثلا) لعدة عقود متوالية، وكيف أمكن لى التغلب على ما صادفنى من صعوبات فى الظروف الاجتماعية المحيطة بى وبمسيرة البحث، وكيف تغلَّبتُ على ما يمكن أن يكون قد انتابنى من عناء أو ملل من حين لآخر؛ وسُئلتُ كذلك كيف أختار الباحثين العاملين معى فى هذا الفريق أو ذاك من فرقاء البحث، وسئلت أسئلة أخرى كثيرة. ومن الواضح فى هذا المثال أن الأسئلة فى مجموعها كانت تتكامل حول استكشاف المخطَّط الأساسى الذى وفَّر لهذا النشاط العلمى المتصل شروط الاستمرار لتحقيق ما أمكن تحقيقه من إنجاز. ويبدو جليا هنا أن التكامل المشار إليه يستند إلى الربط بين جزئيات توزعت فيما بين عدد من الإجابات، صدر كل منها ردًّا على سؤال جزئى بعينه.

كذلك، قد يقصد قارئ هذه الحوارات إلى الحصول على إجابة أو إجابات أخرى غير مباشرة عن سؤال مؤداه: كيف تتولَّد الاهتمامات العلمية أو الفكرية الكبرى فى وجدان صاحبها ؟ وكيف تتبلور هذه الاهتمامات لتتولَّد عنها مشكلات بحثية بعينها ؟. . كذلك قد يتجه قارئ ثالث أو رابع إلى البحث عن إجابة عن سؤال يلحُّ عليه حول موقع النشاطات الأكاديمية خاصة، والثقافية عامة، فى سياق الحياة اليومية لصاحبها؟ أو بعبارة أخرى: حول العلاقات التى قامت ـ

والتى يمكن أن تقوم ـ بين هذه النشاطات الفكرية من ناحية، ونشاطات الحياة اليومية من ناحية أخرى، وما عساه أن يحدث بين هاتين الفئتين من النشاطات من تساند أحيانا، ومن تدافع أحيانا أخرى، ومن تنافر أحيانا ثالثة.

هذا قليل من كثير من أنواع الإجابات التى يمكن أن تطرح نفسها على أذهان القراء على اختلاف تساؤلاتهم وتوجهاتهم نحو القراءة، وفى جميع الأحوال فإن ما يهم المؤلّف هو اقتناعه بأن كتابه هذا إنما يلبّى حاجةً أو حاجاتٍ جديرة بأن تلبَّى عند القراء.

الحوار الأول

وقد نشر بجريدة « الأنوار » البيروتية
فى أبريل ١٩٧٤

مسائل تطرق إليها هذا الحوار

- الوقاية من الأمراض النفسية.
- مفهوم الفريق العلاجى.
- تنمية قدرات الابداع.
- الآثار النفسية لتنامى تعقد الحياة وزيادة كثافتها.
- بعض العادات الذهنية الضارة.
- الدعوة إلى تحقيق ونشر المخطوطات السيكولوجية العربية القديمة.
- العوامل الحاسمة فى إطلاق عملية الإبداع.
- الإلهام الفنى.

الحوار الأول

س: ما هى فى رأيكم سبل الوقاية الناجعة من المرض النفسى على مستوى الأسرة والمجتمع؟

جـ: المفتاح الرئيسى لأية سياسة وقائية من هذا القبيل هو الإقلال ما أمكن من مصادر الإحباط أو التثبيط التى يعجز الفرد ـ أو تعجز الأسرة ـ عن مقاومة آثارها السيئة؛ فكلما استطاعت الدولة أن تقدم من الخدمات ما يجعل الحياة أقل عبئا على النفوس، كان هذا رصيدا هاما للمجتمع فى مستقبل الصحة النفسية لأفراده.

س: وما رأيك فى فكرة الفريق الطبى؟

جـ: هذا النظام أخذت به وزارة الصحة عندنا منذ أواخر سنة ١٩٦٧، وقد أصبح الآن معمولا به فى معظم عيادات الطب النفسى التى تديرها الوزارة.

أما عن الفائدة التى تتحقق من هذا الأسلوب، فهى واضحة فى مجالات التشخيص ومجالات التوجيه للمرضى النفسيين والعقليين؛ ذلك أن هذا الأسلوب يقوم على أساس أن الإنسان الفرد متكامل مع مجتمعه، ومن ثم فهو (أى الأسلوب) يسمح بأن تعالج مشكلات الفرد من جوانبها الجسمية والنفسية والاجتماعية، ويسمح كذلك بأن يتم هذا العلاج بما يتناسب ومستوى التقدم الذى حققته العلوم النفسية والاجتماعية الحديثة. وقد تقدمت هذه العلوم وتشعبت خلال العقود الأخيرة بحيث أصبح من الأفضل ـ بل من الواجب ـ أن يقوم بتقديم خدماتها متخصصون فيها.

س: كيف، فى رأيكم، يتحقق التكامل الاجتماعى للشخصية المصرية التى عانت من الإحباط عصورا طويلة؟

جـ: بإعطاء الفرصة لهذه الشخصية للانطلاق فى واقعها وفى خيالها؛ بمعنى ألا ينزعج المجتمع أمام كل تجربة جديدة، وأن تسود الحكمة والبصيرة فى التفرقة بين ما هو أساسى من قيمنا السائدة فنحتكم إليه، وما هو عَرَضى أو سطحى فنقلّل من شأنه، ولا ندعه يعوق حق الأجيال الناشئة فى اكتساب خبرات جديدة. هذا الرأى ينطبق على مظاهر السلوك فى الحياة، كما ينطبق على أساليب التعبير فى الأدب وفى الفنون جميعا. ويعتبر تطبيق هذا الرأى مسئولية الآباء والمربين وقادة الفكر عموما.

إن إتاحة الحرية لخوض بعض التجارب الجديدة (ما دامت لا تنطوى على عدوان على حقوق الغير) من شأنه أن يؤدى وظيفة هامة تسهم فى تيسير التطور الاجتماعى، وذلك بإثراء الحياة الاجتماعية بالنافع من إنجازات هذه التجارب. وبامتحان صلاحية الأشخاص المجربين، وصلاحية تجاربهم، حتى إذا فشلت هذه التجارب انتهت بأصحابها وبالمتعاطفين معهم إلى اقتناع بأنهم ولجوا طريقا مسدودا. أما وأد الرغبة فى خوض هذه التجارب الجديدة، فليس من شأنه إلا أن يخلق مرارة فى النفوس وحنينا مستمرا إلى تحقيقها؛ وهذا ليس من المصلحة فى شىء.

س: أرجو أن تحدد لنا سبل تنمية قدرات الابتكار لدى الدارسين.

جـ: لابد من تغيير أساليب التربية والتنشئة، وطرق التدريس بوجه عام، بحيث يشجَّع النشء على تقديم ما هو جديد أكثر مما يشجَّع على حفظ ما أُلقى إليهم تلقينًا. إن نظرة فاحصة فى الامتحانات التى يجرى عقدها فى مدارسنا وفى دور العلم لدينا بوجه عام تكشف عن أن هذه الامتحانات تهتم أكثر ما تهتم بقوة وظيفة الحفظ أو الذاكرة عند التلميذ؛ ومعنى ذلك أنها تتجاهل أن هذا التلميذ إنسان غنى أصلا بقدرات أخرى إلى جانب الذاكرة؛ مثال ذلك قدرات الاستدلال المنطقى، والتخيل، وقدرات عملية متعددة. فإذا أردنا أن نربّى فى معاهدنا العلمية إنسانًا متوازنا من حيث توظيف قدراته جميعا، تعيَّن علينا أن نوجه جهود

التدريس والامتحانات إلى تنمية هذه القدرات جميعا، لا إلى تنمية قدرة أو وظيفة واحدة هى الذاكرة.

س:وكيف نُنَمِّى الفكر الخلاَّق على مستوى المجتمع؟

جـ: يلزمنا أن نتكلم هنا عن ثلاث وسائل أو طرق رئيسية؛ أولها استحداث تغيير جذرى فى أساليب التربية السائدة لدينا، بحيث يصبح الغالب عليها التوجه إلى تشجيع الجديد، وتشجيع الابتكار، بدلا من التنفير منه والدفع إلى الاتّباع. وثانى هذه الطرق تشجيع أسفار الشباب إلى الخارج، بهدف الاحتكاك والتفاعل الحضارى مع الأشكال المختلفة للحضارة الإنسانية حيثما كانت.. ولا خوف من ذلك على أصالتنا، لأن هذا الاحتكاك ليس سوى خطوة أولى، ثم تتبعها خطوات أخرى كالانتقاء والتمثيل والاستيعاب لما يلائم أو لا يتنافر مع خصوصيتنا.. أى تاريخنا، وقيمنا، وتوجُّهنا العام فى الحياة. ثم هناك طريق ثالث يحتاج إلى كثير من الجهد، وهو يعتمد على وسائل الإعلام. فأنا مقتنع بأن وسائل الإعلام يمكنها أن تقدم الكثير مما هو نافع ومفيد، غير أن هذا يقتضى من العاملين فيها والقائمين عليها حسًّا تاريخيا مرهَفًا، واستبصارا بالاتجاه العام لحياة الإنسان فى عصوره الحديثة، كما يقتضى وعيا بضخامة المسئولية الملقاة على عاتقهم.

س: كيف يمكن حل التناقض بين الطبيعة البِكر فى القرية، والحضارة المعقدة فى المدينة؟

جـ: إذا تصورنا أن هذا التنافر لا وجود له إلا من خلال الإنسان الذى ينتقل من بيئة القرية إلى بيئة المدينة، ففى هذه الحالة يصبح القضاء على هذا التنافر ممكنا، وذلك بتيسير سبل التغيير فى هذا الإنسان، بحيث يسهل عليه أن يعدّل من ردود أفعاله، ومن إدراكه، وعاداته، واتجاهات تفكيره، وقيمه، دون أن يتعرض لصراعات حادة. ولاشك أن مهمة كبيرة من هذا القبيل تنتظر القائمين على وسائل الإعلام، كما تنتظر القائمين على توجيه النشء حيثما كانوا، معلّمين فى

معاهد العلم، أو آباء فى البيوت، أو قادة فى النوادى، أو كُتَّابا أو قادة للفكر. . . إلخ.

س: ما الأثر الذى يتركه فى النفس اتجاه الحياة العصرية نحو مزيد من الكثافة والتعقد؟

جـ: هذه الكثافة المتزايدة نفسها تزيد بلا ريب من تعقد النفس البشرية؛ وما أقصده بهذا التعقيد أن نفوسنا تنمو بها عادات ووظائف جديدة بما يناسب الظروف المحيطة بها والمؤثرة فيها، وهى ظروف لم يكن لها وجود من قبل. ومن هنا نتصور أن تكون عواطف الإنسان فى العصر الحديث، وكذلك أفكاره وأحلامه وآماله، أعقد بكثير من قبل. غير أننا لابد أن نتنبه هنا إلى أن حديثنا عن الإنسان الحديث أو الإنسان العصرى يعنى الإنسان الذى يتفاعل مع أحداث الحياة العصرية ومقتضياتها.

س: ألا ترون أن لدينا قوالب وعادات ذهنية يجب التخلى عنها؟

جـ: بلى. وربما كان من أبرز هذه القوالب أو أشكال السلوك، استئثار الألفاظ بطاقتنا العقلية، بحيث نجد الكثيرين يميلون إلى الاستطراد العقيم بدلا من التركيز. كذلك يبرز بين القوالب الشائعة لدينا الاستعداد لقبول كثير من القضايا دون امتحان جاد لحقيقة مضمونها، ولصدقه؛ ومن المحقق أن مثل هذا الامتحان يقتضى أحيانا قدرا من الشجاعة الأدبية، كما يحتاج إلى رياضة للنفوس، وإلى مواجهة للغموض، وإلى المثابرة على توضيح مجال الرؤية.

س: وماذا يترتب على الصراع الفكرى؟

جـ: الصراع فى ذاته ليس شرًّا ولا خيرا، لكنه أحد قوانين الوجود، وأحد قوانين الحياة خاصة، سواء الحياة النفسية أو الحياة الاجتماعية. فإذا صادف الصراع نفسا مزودة بعدد معيَّن من القدرات وقد أحيطت بظروف تاريخية أو تربوية معينة، فمن شأن هذا الصراع أن يولّد الرغبة فى ابتكار حلول جديدة، وفى تقديم تصورات غير مسبوقة. أما إذا وقع الصراع على من لم تُهَيَّأ نفسه

للبحث عن مثل هذه الحلول، بكل ما يعنيه ذلك من عناء، فمن شأن هذا الصراع أن يتعس هذه النفس، وأن يزيدها خمولا على خمول.

س: كنتَ قد نوهت فى أحد مقالاتك بضرورة نشر المؤلفات السيكولوجية الكائنة فى التراث العربى القديم. فهل يمكن أن تحدثنا عن نماذج من هذه المؤلفات، خاصة وأنها تكاد تكون مجهولة لدى الكثيرين؟

جـ: توجد فى التراث العربى القديم مخطوطات تتناول كثيرا من الأفكار السيكولوجية التى لها أهمية كبيرة فى ضوء بحوثنا الحديثة. ولابد من نشر هذه المخطوطات النشر العلمى الذى يجدر بها، وذلك كجزء من نشر تراث الفكر الإنسانى عامة، وكذلك كجزء من تأصيل إسهام الفكر العربى فى هذا الميدان. ويحضرنى الآن كنموذج لهذا الطراز من المخطوطات كتاب **الفخر الرازى** فى علم الفراسة، وهو ما يعادل بلغتنا الحديثة بحوث الشخصية. كذلك يحضرنى كثير من الكتابات العربية التى تم نشرها حديثا، ولكن دون أن تلقى التحقيق العلمى السليم. من ذلك كتابات الفارابى فى «آراء أهل المدينة الفاضلة»، وكتابات ابن سينا فى «القانون فى الطب» وغيرها.

س: ما هى العوامل الحاسمة التى تشارك فى تفعيل الإبداع فى المجالات المختلفة؟

جـ: أولا وقبل كل شىء، إيمان من كرس نفسه للإبداع بقدرته على أنه سوف ينجز شيئا ذا خطر، ثم التفانى فى العمل المثابر المستمر لتحقيق هذا الهدف، شريطة أن يعرف الشخص كيف يحمى نفسه من كثير من عوامل الإغراء التى من شأنها أن تشتت جهده، ومن ثم تضعف قدرته على تحقيق ما وعد.

س: وما هو الإلهام الفنى؟

جـ: الشىء المهم فى هذا المجال أن يعنى الفنان بتبين حدود قدراته، أديبًا كان أو شاعرا أو مصورا... إلخ. ومع مزيد من النضج، يستطيع أن يعرف أنسب اللحظات وأنسب المواقف التى من شأنها أن تلهمه عملا فنيا خلاقًا.

س: هل الفلسفة تقتل الشعر؟

جـ: الفكر عامة، والفلسفة خاصة، لا يقضيان على الشاعرية. الذى يُجهز على الشاعرية هو قلة مثابرة الشاعر على المران المتصل فى ميدانه اطّلاعًا أو تَلَقِّيًا أو تعبيرا؛ ذلك أن المفروض بالنسبة للشاعر أو لمن يعدُّ نفسه لأن يكون على مرتبة عالية من الشاعرية، أن يؤمن بميدانه بالدرجة التى تجعله يوجّه طاقاته الواعية إلى هذا الميدان الذى يريد أن يبرز فيه. والمشكلة كلها تنحصر فى ضرورة أن يعرف الشخص حقيقة ميوله، وأن يؤمن بالطريق الذى بدأ بالسير فيه، وأن يهبه نفسه.

الحوار الثانى

وقد نشر مجلة « الفيصل » العربية السعودية
فى أغسطس ١٩٨٧

مسائل تطرق إليها هذا الحوار

- منهج البحث العلمى.
- الجدية فى العمل.
- البحث العلمى فى ظروف مجتمعاتنا العربية الحديثة.
- كيف يكون الإدراك الخصب للمشكلات.
- الأصالة.. ما هى؟.
- الأنثروبولوجيا الحضارية وعلاقتها بعلم النفس.
- مشكلة تعاطى المخدرات.

الحوار الثانى

س: قلتم إن الشرط الجوهرى لقيام أية دراسة علمية أن يعرف الباحث كيف يُخضع الموضوع الذى يدرسه أو الظاهرة التى تثير اهتمامه لمنهج البحث العلمى. فهل امتلاك الباحث للمنهج من الشروط الكافية لنجاحه فى مهمته؟ وما دور المعايشة والخبرة فى مجال البحث؟

جـ: ما قلته فى مواضع متعددة يفترض أساسًا أن لدى الباحث مقومات حقيقية، مثل انصرافه للدراسة، واهتمامه بموضوع البحث، واستعداده لأن يقدّم المجهودات المختلفة فى مجال البحث.. ومنها ما يمكن أن نسميه إيمانه بقيمة الكشف عن الحقيقة والبحث عنها.. بعد ذلك يمارس تطبيق المنهج وأدواته.. فإذا لم تتوفر هذه الشروط الأولية والأساسية جدا، فلا قيمة لمسألة امتلاك منهج معيَّن وأدوات معينة، لأنه من الممكن أن أتصور أشخاصا يعرفون المنهج لكنهم يضنُّون بمجهودهم، ويتجهون إلى مشاغل ليس لها علاقة بالعلم. وعلى ذلك فامتلاك أدوات البحث والمنهج والتمكُّن منه هو شرط ضرورى، لكنه ليس شرطا كافيا. من ناحية أخرى، فالشخص الذى درس المنهج والأدوات ينقصه بعد ذلك المران على اختيار المشكلة التى تناسب هذا المنهج، ويمكن كذلك المطابقة بين المنهج والمشكلة والأدوات. وبعد ذلك كله تنقصه معايشة الظاهرة لفترة ما لكى يكتشف من جوانبها ما يشير إلى أن الظاهرة أغنى كثيرًا من أن يحيط بها تماما عن طريق منهجه وأدواته، ومن ثم يدرك قيمة ما يسمى بتواضع العلماء، فيصبح على بيّنة من حدوده وحدود أدواته التى لن يستطيع أن يتعداها.. لكن بوساطتها يستطيع أن يسهم بقدر ما.. قدر محدود لكنه قدر مطلوب فى الكشف عن جوانب بعينها لا عن جميع جوانب الموضوع.. ها هنا

تكون المعايشة مفيدة، وتكوّن فى مجموعها ما يسمى بمحصول الخبرة عند هذا الباحث.

س: لدينا فى منطقتنا العربية من يملكون الخبرة ومن يعرفون مناهج البحث العلمى، لكننا لا زلنا نستورد المصطلحات والأساليب والابتكارات. فهل المناخ العربى لا يساعد على تحقيق الاكتفاء الذاتى ـ على الأقل ـ فى مجال البحث والابتكار؟

جـ: إذا قصدنا بالمناخ العربى المناخ الراهن، فأنا لا أستطيع أن أقول إنه لا يساعد أو إنه مانع للعمل الجاد. لكن كل ما أستطيع قوله من واقع خبرتى إن العوامل المانعة كثيرة وثقيلة فى وطأتها، فى حين أن العوامل الدافعة لا تزال قليلة وضعيفة.. ومن ثم فما نرجوه فى المستقبل أن نزيد من تقوية عوامل الدفع. ولا أستطيع أن أنكر أن كثيرًا من مثقفينا تبهرهم إنتاجات الغرب بدرجة أكبر مما يجب. نعم هذه إنتاجات قيّمة فى تاريخ الإنسانية عندما تنظر إليها على محك تاريخ التقدم الفكرى والحضارى.. ومع ذلك فالانبهار بها قد يكون له أبلغ الضرر. لذلك يلزم الالتفات إلى نقطة هامة: إلى أى مدى تناسب هذه الإنتاجات الغربية (الأفكار والأدوات) ظروف الظاهرة التى ندرسها فى سياقنا الحضارى؟ كذلك يلزمنا أن نعرف كيف نستقبل مثل هذه الإنتاجات الاستقبال الصحى بحيث نستطيع فى الوقت ذاته أن ندرك أين تعجز عن أن تتناول ما لدينا من ظواهر، ومن ثم يصبح السؤال المُلِحُّ علينا: أين ينبغى لإسهامنا أن يكون أو أن يتجه؟ وكيف؟.. ثم إن هذا الذى يأتى إلينا من الغرب قد يحتاج إلى تطويع بحيث لايجوز أن نقبله على علاته. ومعنى ذلك أن علينا أن نقوى النظرة النقدية، شريطة أن تظل فى حدودها الصحية، وألا تصل إلى التعالى الأجوف فنرفض إنجازات الغير ممن سبقونا فى اكتشاف قدر من المجهول، والاجتهاد فى علم من العلوم أو اختراع من الاختراعات التكنولوجية. هذا النوع من التوازن مسألة صعبة، لكنه الصعب المطلوب.

وهناك مجال كبير أمام الباحثين فى ميادين علم النفس، وعلم الاجتماع فى المجتمعات العربية بوجه خاص، والنامية بوجه عام، ولا يستطيع الباحث الغربى أن يسهم فيه غالبا. ولابد لذلك من اجتهاد العلماء الوطنيين، والعلماء العرب. والعلماء من أبناء المجتمعات النامية بصورة عامة. وما ينقصنا فى هذا الشأن هو الجدية، أى أخذ الحياة مأخذ الجد، وأخذ العمل (الفكرى واليدوى) مأخذ الجد.

س: من واقع خبرتكم، إلى أى شىء يرجع القصور فى الجدية لدينا؟

جـ: أعتقد أن هذا القصور يرجع إلى عدد من العوامل؛ فهناك مناخ عام مهدّد لقيم الجدية فى العمل كنشاط إنسانى مسئول ينتهى إلى إنجاز تصبح مسئولا عنه مسئولية اجتماعية، وهذا هو الفرق الرئيسى فى تقديرى بين العمل واللعب، فكل منهما نشاط إنسانى، لكن أحدهما مسئول ومنظَّم ومتجه إلى هدف لابد من إنجازه، وأنت تثابُ على هذا العمل أو تعاقب اجتماعيا؛ وبناءً على هذا التعريف تقترن بالعمل مجموعة من القدرات والقيم، كالقدرة على التنظيم، واحترام الوعد، واحترام الزمن أو الشعور المسئول بقيمة الوقت.

س: هل يختلف تكوين الإنسان الذى يعيش فى المجتمعات العربية خاصة والنامية عامة، عن الإنسان الذى يعيش فى المجتمعات الغربية المتقدمة، أعنى نفسيا واجتماعيًا؟

جـ: إطلاقا... لكن ظروف الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية هى التى تجعله على ما هو عليه؛ فنجد الشخص فى المجتمعات النامية، وفى المجتمعات العربية بوجه خاص، غير مطمئن على غده، ونجده لا يستطيع أن يخطط لمستقبله على المدى البعيد... كذلك نجد الشخص (فى هذه المجتمعات) إذا اجتهد فإنه لا يجد الوسائط المُعِينة أو المساعدة بالصورة التى يجدها نظيره فى المجتمعات المتقدمة، ذلك أنك لن تستطيع أن تعمل جادا دون أن يكون حولك عشرات من العناصر التى تكوِّن فى جملتها ما يلزم لإنجاز هذا العمل، بدءًا بالمساعدين الفنيين، إلى الأدوات والتجهيزات المعملية، كما أنك تحتاج إلى زملاء

على دراية بالتخصصات القريبة من تخصصك، فتستعين بهم من وقت لآخر لتجد لديهم الحلول التى تعينك مباشرة على مواصلة خط السير فى بحوثك الجارية داخل تخصصك. من هنا أستطيع أن أقول إنه لا يمكن أن يتم لدينا أى إنجاز كبير بدون توفر الوعى الجماعى بين المتخصصين بحاجتهم إلى التعاون المتبادل. أضف إلى ذلك أنه لابد من وجود مناخ عام من الاهتمام. . فعندما ينجز شخص ما إنجازًا بعينه، يجد أصداء لإنجازاته كمردود معنوى، وربما كعائد مادى كذلك. . . ولكن ـ للأسف ـ أعتقد أن الظروف التى تعيش فى ظلها الدول النامية عامة، والعربية خاصة، تفرض فى هذا الصدد مناخا معاكسًا إلى حد كبير.

س: ما دام الإنسان هو الإنسان فى كل مكان، لكن الظروف التى يعيش فيها هى التى تختلف؛ فمن واقع خبرتكم العلمية، ما العوائق التى تحول دون تقدم العبقرية العربية لحل مشكلاتها ولتحقيق ذاتها؟ ومن أين تكون البداية؟

جـ: مفتاح العبقرية عموما هو إدراك المشكلات. لكن هذه الخطوة الأولى وهى عملية الإدراك فى ذاتها عملية معقدة جدا؛ فنحن جميعا ندرك مشكلاتنا المتعددة، إلا أن كلا منا يدركها بطريقة معينة تملى عليه بعد ذلك ما هو فاعل؛ فربما يتقدم ويتصدى لإيجاد حلول لها، وربما يتوقف ليتأملها ويتحسَّر على أنه يعيش فى هذا الزمن، وربما تثير لديه الحسرة تداعيات تمس المشكلة مَسًّا سطحيا. هكذا نجد أن كيفية الإدراك تختلف من شخص إلى آخر. ومن هنا نبدأ. كيف نبدأ؟ بأن نبتكر صيغة تدخل فى عمليات التعليم لدينا لكى ندرّب النشء على أن يدركوا المشكلات الإدراك الخصب الذى يدفع إلى عمل جاد فى اتجاه الفهم والحل، والتعميم من المشكلة الجزئية إلى فهم المشكلات الكبرى المعقدة. هذه هى الخطوة الأولى التى تليها منطقيا خطوات أخرى كالأصالة والطلاقة والمرونة والتقويم.

س: ذكرتم اصطلاح «الأصالة» الذى شاع استخدامه فى العديد من المجالات. ما معنى هذا الاصطلاح على وجه الدقة؟ وهل يعنى الجديد بالضرورة؟

جـ: استخدام المصطلح نفسه فى عدد من المجالات يمكن أن يثرى الفكر، كما أنه يمكن أن يؤدى إلى غموض غير مقبول، وذلك فى حدود الاستخدامات الفنية والأدبية والعلمية. هذا بوجه عام. أما عن المقصود بمصطلح الأصالة، فهو الإشارة إلى اتجاه الشخص إلى وضع حلول غير مسبوقة لمشكلة ما، وعبارة «غير مسبوقة» هنا لها كذلك معنى محدد، وهو أن الباحث نفسه لم يطلع على مثل هذا الحل من قبل.

وفيما يتعلق بسؤالك هل الأصالة هى الجِدَّة؟ نعم هى الجدة، الجدَّة بالنسبة للباحث نفسه. فإذا تبين فيما بعد أن هذا الحل الجديد بالنسبة للباحث جديد أيضا بالنسبة للتراث - أى لم يرد ذكره فى التراث من قبل - اكتسبت الجدة البعد الاجتماعى الذى يزيد من القيمة الإبداعية للحل.

س: جاء فى كتابكم «دراسات نفسية فى الفن» قولكم: «يجب أن يدرك الناقد أن لحظات التهيؤ النفسى تحدد نوع استقباله للعمل الذى يتصدى لتقويمه». فهل من توضيح لهذا الكلام، خاصة ونحن نعيش فى أزمة نقد تلقى بظلالها على الحركة الفكرية والثقافية بوجه عام لدينا.

جـ: أولا، يجب على من يتصدى للتعليق أو لنقد عملٍ جاد (أدبى، أو فنى، أو علمى) يجب على هذا الشخص أن يضع نفسه فى حالة التهيؤ الصادق والمناسب لهذا العمل لكى يستطيع أن يقوم بمهمته بالأمانة الواجبة والجدية المكافئة لجدية العمل ذاته. وتحتاج عملية التهيؤ إلى أن يكون الإنسان فى إيقاع نفسى معيَّن عند قراءة العمل، وأن يصبر على نفسه، وأن يتخذ من العمل وسيلة للدخول فى محرابه، وذلك بأن يقرأه مرات حتى يجد نفسه وقد دخل فى إيقاع العمل فيقرأه القراءة المناسبة...

س: وما هى العوامل التى تساعد على التهيؤ لدى الناقد عموما؟

جـ: من هذه العوامل أن يكون من يتصدى لعملية النقد على صلة مستمرة لا تنقطع بهذا الطراز من الأعمال الذى يتصدى لنقده، بحيث يمكن القول بأنه هو

نفسه يعيش إيقاعات وأفكارا ومفاهيم أقرب ما تكون إلى نوع الأعمال التى يريد أن يتخصص فى نقدها، وهذا ينصف الأعمال تماما. وأهم من ذلك أنه ينصف المجتمع نفسه، لأنه عندما يظلم الناقد عملا جادا فلا يعيره القراء اهتماما، ومن ثم لا تتاح له فرصة الإسهام فى تشكيل وجدانهم.. فإن الناقد بتصرفه هذا يفقر المجتمع دون أن يدرى.. يفوّت على المجتمع فرصة قد تكون هامة.. لذلك تقع على الناقد مسئولية اجتماعية خطيرة.

س: ماذا تقصد من وراء اقتراحكم بإجراء بحث أنثروبولوجى للمقارنة بين الأحكام الجمالية عبر عدد من الحضارات.. وهو ما جاء فى كتابكم الذى ذكرناه منذ قليل؟.. ومَن من المتخصصين يمكنه أن يقوم بمثل هذه الدراسات؟

جـ: هناك قضية هامة تثار من حين لآخر، مؤداها أن الأحكام الجمالية نسبية، بمعنى أن ما نراه قيّمًا فى العمل الفنى فى مجتمع معين قد لا يراه مجتمع آخر على أنه كذلك، أو أن ما نراه جميلا ونستمتع به فى مجتمع معيَّن قد لا يراه مجتمع آخر جميلا أو قيّما. هذه القضية هى المطروحة هنا، ومن الممكن أن ندرسها فى إطار مناهج العلوم الاجتماعية، وذلك بإجراء الدراسات التى تقوم على المقارنة المنضبطة بين أحكام جمالية صادرة فى مجتمعات متعاصرة، أو فى مجتمعات متفاوتة من حيث زمان وجودها. هذا عن الدراسات نفسها. أما فيما يتعلق بالسؤال عَمَّنْ يقوم بها، فمن الممكن أن يقوم بهذه الدراسات فرقاء من الباحثين.. فيهم المتخصصون فى العلوم النفسية، والمتخصصون فى الأنثروبولوجيا الحضارية، والمتخصصون فى النقد الأدبى أو الفنى.. وربما أمكن الوصول من هذه الدراسات إلى تحديد ما هو الثابت وما هو المتحوّل فى الأطر الحضارية المختلفة فيما يتصل بالقيم الجمالية.

س: إذا تبين وجود مقام مشترك بين الأحكام الجمالية فى المجتمعات المختلفة فهل هذا فى صالح الفن نفسه؟ ومن ناحية أخرى ألا ترى أن المقاييس النسبية تثرى الفن؟

جـ: أيُّ كشف عن الحقيقة أعتقد أنه فى صالح الفن والفكر عموما.

ومع ذلك فأنا لا أظن أن الأحكام (والمقاييس) نسبية تماما، وإلا لما كنا استطعنا أن نتكلم حول ما يسمى بالأدب العالمى والفن العالمى.

س: إذاً هذه دعوة إلى الأدب العالمى وتحديد مقاييسه.

جـ: نعم. مع ملاحظة أن الأدب العالمى لا ينفى الخصوصية الحضارية والاجتماعية. ومن ثم تصبح المشكلة التى أدعو إلى دراستها هى: كيف نستطيع أن نصل إلى تحديد علمى للمقام المشترك فى هذا الأدب العالمى والفن العالمى بحيث لا نلجأ إلى أحكام انطباعية يختلف بصددها الحكام والأفراد عامة؟.. ومع ذاك فأنا لا أزال أحمل عددا من التحفظات فى هذا الموضوع.

س: الأنثروبولوجيا كفرع من فروع المعرفة: هلا حدثتنا عن سماته وعلاقته بعلم النفس، وبعلم الاجتماع؛ وعن دوره على المستوى العربى فى حل مشكلاتنا؟

جـ: الأنثروبولوجيا الحضارية هى علم الحضارات.. وقد تأسس هذا العلم فى القرن التاسع عشر. ومعرفتنا به فى العالم العربى حديثة جدا، ولا تزال جهود علمائنا فيه متواضعة. وفى تقديرى أنه يمكن اعتبار الأنثروبولوجيا الحضارية علمًا مكمّلاً لعلمى النفس والاجتماع؛ ذلك أن كثيرا من ظواهر السلوك البشرى لا تكتمل معرفتنا بها إلا إذا عرفناها من جوانبها النفسية والاجتماعية والحضارية. خذ مثلا ظاهرة تعاطى المخدرات؛ هذه الظاهرة يمكن دراستها من زاوية النظر الخاصة بعلم النفس، فندرس عددا من الوظائف النفسية، مثل تركيز الانتباه، أو دقة الإدراك، أو التذكر، من حيث تَأثُّر كل منها بتعاطى الشخص لمقادير مختلفة من مواد مخدرة مختلفة. ثم نستكمل الدراسة من زاوية النظر الاجتماعية، فنسأل عن أى الشرائح الاجتماعية ينتشر فيها هذا المخدر أو ذاك؟ وهنا سوف نجد أن مخدرا بعينه ينتشر فى شرائح اجتماعية بعينها دون شرائح أخرى. ونتساءل: ما هى العوامل التى ساعدت على انتشار تعاطى

الهيروين والكوكايين بين هذه الشرائح دون تلك؟ ثم نستطيع أن نكمل دراسة الظاهرة دراسة شاملة من منظور أنثروبولوجى بأن نقارن بين شكل الانتشار فى المجتمع المصرى مثلا وشكله فى مجتمع عربى آخر، وشكله فى مجتمع خارج إطار الحضارة العربية كالمجتمع الهندى أو المجتمع الإنجليزى. . وقد نجيب من خلال ذلك على سؤال: ماذا يوجد فى الإطار الحضارى المصرى من عوامل شجعت على تعاطى القُنَّب (الحشيش) بين فئات بعينها طوال عدة قرون، منذ أن أُدخل فى مصر فى القرن الثانى عشر الميلادى، رغم الجهود التى بذلت من قبل الحكومات المختلفة لمكافحته؛ على حين أُدخل القنب فى أوروبا فى القرن التاسع عشر فلم ينتشر ولم يستمر، ثم أعيد إدخاله فى أوروبا فى منتصف القرن العشرين فبقى وانتشر؟ هكذا ندرس دور الإطار الحضارى من حيث تأثيره فى الظاهرة، وبذلك تكتمل صورة الظاهرة موضع الدرس من جوانبها المختلفة.

س: هذا يجرُّنا إلى سؤال بعينه. فنحن نعرف أن لكم العديد من الأبحاث فى مجال تعاطى المخدرات، خاصة بين الشباب. فما أهم هذه الأبحاث؟.. وما النتائج التى توصلتم إليها فى هذا المجال؟

جـ: التركيز الآن فى بحوثنا، ومنذ عشر سنوات، على انتشار المخدرات المختلفة، بما فيها المخدرات الطبيعية مثل الحشيش والأفيون، إلى المخدرات الدوائية التى تؤثر فى الحالة النفسية لغير الأغراض الطبية، إلى تعاطى الكحوليات، خاصة بين الشباب. وقد لاحظنا فى دراساتنا أن إقبال بعض الشباب على تعاطى مثل هذه المخدرات يرجع إلى عدة أسباب، منها حب الاستطلاع. وقد أوضحت الدراسات أن نسبة الذين يستمرون حوالى ربع الذى يخوضون تجربة التعاطى. وهذه إحدى النتائج الهامة التى يجب أن توضع فى الاعتبار، إذ يتضح منها ألا مدعاة للقلق الشديد، وهو ما يعنى أن تكون خططنا الوقائية والعلاجية مناسبة للحجم الحقيقى للظاهرة دون تهويل ولا تهوين، فالمبالغة قد تأتى بنتائج عكسية، بمعنى أنها قد تساعد على انتشار الظاهرة بدلا من النجاح فى القضاء عليها. ومن أهم نتائج بحوثنا كذلك ما تبين من أن الشباب فى السن

الواقعة بين السادسة عشرة والسابعة عشرة يكونون أكثر اندفاعا منهم فى أى سن آخر إلى خوض تجربة التعاطى، وهو ما يستتبع ضرورة العناية بالشباب فى هذه الفترة العمرية بوجه خاص؛ علما بأنه بعد هذه الفترة يقل عدد المقبلين على بدء التعاطى، ويقل تدريجيا حتى يندر الإقبال على بدء التعاطى عند سن الثلاثين وما بعدها. كذلك يتناقص الإقبال على بدء التعاطى كلما ابتعدنا عن سن السادسة عشرة نحو الأعمار المبكرة. . بهذه المناسبة يبدو لك بوضوح دور العلماء الوطنيين للسعى والاجتهاد من أجل إيجاد الحلول المناسبة (على أسس علمية) للتغلب على مشكلاتنا العديدة فى هذا المجال، وفى مجالات الحياة المختلفة.

الحوار الثالث

وقد نشر فى « الدورية البريطانية للإدمان »
فى سنة ١٩٨٨

مسائل تطرق إليها هذا الحوار

- كيف اتجهت إلى التخصص فى علم النفس.
- التحولات الرئيسية فى الحياة الشخصية.
- كيفية الاستمرار فى البحث فى مجال واحد لمدد طويلة.
- العقبات والتيسيرات التى لقيتها فى السبيل إلى مواصلة البحث فى تعاطى المخدرات.
- كيف انتقلت من مجال بحثى إلى مجال بحثى آخر.
شخصيات علمية كبيرة عملت معها.
- ثنائية الهوية بين المحلية المصرية والمشاركة مع أفراد أسرة العلماء فى العالم.
- البحوث الحضارية المقارنة.

الحوار الثالث

س: أعرف أنك كنتَ طالبا فى قسم الدراسات الفلسفية فى سنوات الأربعينيات، ولكنك تحولتَ فيما بعد إلى علم النفس. كيف وقع هذا التحول؟

جـ: عندما كنت فى السادسة عشرة من عمرى، منحتنى وزارة المعارف العمومية (التربية والتعليم) جائزة للأداء المتميز فى اللغة العربية وآدابها، وقد احتوت الجائزة بين ما احتوت على مجموعة ممتازة من الكتب. وقد أثار حب الاستطلاع لدى بين هذه الكتب كتاب **ويل ديورانت** المُعَنْوَن «قصة الفلسفة» (الذى نقله إلى العربية بتصرف الأستاذان **أحمد أمين وزكى نجيب محمود**)، وقد استغرق منى أسبوعين لكى أتم قراءته، ومن ثم قررت أن تكون دراستى الجامعية فى الفلسفة. وكانت السنوات الأربع التى قضيتها بهذا الهدف فى قسم الدراسات الفلسفية بكلية الآداب، جامعة القاهرة (١٩٤١-١٩٤٥)، مفعمة بالسعادة؛ فبالإضافة إلى انتظامى فى الدراسة ببرنامجها الرسمى، قرضت الشعر، وكتبت القصة القصيرة، واكتشفت الموسيقى الكلاسيكية (الأوروبية). وقد بهرنى فى دراسة الفلسفة ما انطوت عليه من سعى دائم إلى تكوين نظرة شاملة إلى الكون، واقتران ذلك بتنمية توجه نقدى وشحذ هذا التوجه. ثم لم تلبث فلسفة الجمال أن انبثقت كمجال مفضَّل لدى. فى ذلك الوقت كان علم النفس يدرَّس فى قسم الفلسفة كدراسة فرعية. وقبيل تخرُّجى ببضعة أشهُر دعيت إلى مقابلة خاصة مع أستاذ علم النفس، وكان ذلك على أثر تقديمى بحثًا (باعتباره من أعمال السنة) يتناول أحد موضوعات الباراسيكولوجى؛ والتقيت بالأستاذ، ودارت المناقشة بيننا حول ما عساه أن يكون لدىَّ من خطط دراسية لما بعد التخرج. وعندما ذكرت له أننى أرجو أن أتخصص فى فلسفة الجمال، بدأ يغرينى بالتحول

إلى التخصص فى علم النفس، مؤكدا لى إمكان دراسة الجماليات التجريبية فى إطار علم النفس. وأعتقد الآن أن هذه المقابلة كانت عاملا مهما فى تحولى إلى دراسة علم النفس.

س: فى شبابك الباكر كتبت الشعر والقصة القصيرة، ثم توقفت عن هذه الكتابة فجأة.. فلماذا؟ هل ترى أن هناك تناقضا بين الكتابة الإبداعية والإنتاج العلمى؟

جـ: ووجهتُ فى مرحلة معينة من نموى العقلى بصراع بين ميولى الأدبية والمسيرة البحثية التى انتويت أن أختطَّها، وكنت إذ ذاك فى التاسعة عشرة أو فى العشرين من عمرى، وشعرت حينَ ذاك أننى قد لا أستطيع أن أتميز فى أى من المجالين. فى الوقت ذاته كنت خائفا أشد الخوف من أننى قد أسىء الاختيار بينهما. وكانت هذه أزمة حقيقية بالنسبة لى، مليئة بأنواع مختلفة من التردد والقلق. لا أريد أن أسترسل فى وصف هذه الأزمة، المهم أننى أنهيتها بقرار اتخذته بأن أكرس إنتاجى الإبداعى للبحث العلمى. ولكى أحصِّن نفسى ضد الانتكاس إلى مايشبه تشككى وترددى السابقين، جمعت كل ما أنتجت باسم الإبداع الأدبى وأحرقته، وكانت النتيجة أننى لم أنتكس أبدا بعد ذلك. ومع ذلك فلا أزال أشعر بأننى أحمل فى نفسى بقايا من ذلك الماضى، وأن هذه البقايا تزحف إلى نشاطى البحثى من حين لآخر.

من هذا القبيل مثلا ما أشعر به من استمتاع جمالى بالقراءة والكتابة بوجه عام. جدير بالذكر هنا أن من بين محكاتى للحكم على الكتابة بالجودة، تكامل البرهان ونعومة الانتقال من حجة إلى حجة. كذلك أجد لدىَّ اهتماما بدرجة ما باختيار الكلمات والعبارات، ولا أتوقف فى هذا الصدد عند أوضح معانى اللفظ أو العبارة، ولكن أمتد باهتمامى إلى ألطف الدلالات والظلال. وأجدنى أحيانا أستمتع بالتأمل فى بعض الأمور الفارقة بين اللغات المختلفة. من هذا القبيل مثلا أن لدينا فى اللغة العربية عدة مفردات تشير إلى أشكال متعددة من تعاطى المواد

النفسية، كما أن لدينا عدة ألفاظ يشير كل منها إلى درجة ما من التغير النفسى المصاحب للتعاطى. وكثيرا ما أحاول أن أجد فى الإنجليزية مفردات تناظرها.

كذلك أشعر بانجذاب خاص إلى بعض الكتَّاب لما يكشفون عنه من رشاقة فى الطريقة التى يتناولون بها موضوعاتهم. مثال ذلك أننى أعجبت ببعض تجارب **كارلينى E.A.Carlini**، حيث أعطى للفئران مادة التتراهيدرو كنَّابينول (العنصر الفعال فى القنب)، وأخذ يدرس الفروق فى ردود الأفعال الناجمة عن ذلك بين فئران تعانى وأخرى لا تعانى من نوع معيَّن من المشقة؛ فوجد أن الفئران التى تعانى من المشقة أصبحت عدوانية، على حين أن الأخرى التى لا تعانى من المشقة أصبحت أشد سلاسة مما هى بدون المخدر. أمام هذه التجربة أجد أن ما يُمتعنى فيها هو أنها تنقل منظورا بعينه من سيكولوجيا البشر إلى عالم السلوك الحيوانى. ولا يحتاج الأمر بعد ذلك إلا إلى خطوة واحدة لكى نربط بين هذه النتائج وفكرة الفروق الفردية فى مجال السلوك البشرى، والحاجة إلى معالجة هذه الفروق باعتبارها متغيرات معدّلة.

وأستطيع أن أذكر فى هذا الصدد عديدا من أمثلة مشابهة باعتبارها من بقايا اهتماماتى الأدبية والفنية الماضية.

س: بدأتَ بحوثك فى مجال تعاطى القُنَّب فى سنة ١٩٥٧، أى منذ ثلاثين عامًا..* ويعتبر الاستمرار بهذا القدر إنجازًا فى حد ذاته، لا بالنسبة لبلد نام كمصر فحسب، ولكن بأى مقياس عالمى. فما هى الآليات التى احتفظت لكَ بزخم العمل على هذا النحو؟.. وهل اعترضت طريقك أى عقبات فى هذه المسيرة؟.. وكيف تغلبتَ عليها؟

جـ : فى رأيى أن عددا من الآليات ساهمت فى هذا الاستمرار. فأولا: كان هناك ما يمكن أن تسميه المصدر الأصلى لطاقة الدفع، ومؤداه إدراكى أننى أؤدى

* يلاحظ أن هذا الحوار أُجرى فى سنة ١٩٨٧ ونشر سنة ١٩٨٨.

خدمة اجتماعية من حيث كونى منغمسًا فى هذه البحوث. وقد كان هذا الدافع إلى أداء شىء مفيد اجتماعيا عن طريق تطبيق معرفتى العلمية، كان دائما دافعا أساسيًّا لدى. وثانيا: كان هناك المردود الذى تلقيته نتيجة لهذا الجهد، وأخص بالذكر هنا ما تلقيته من المحافل العلمية الدولية. وكان هذا المردود ينطوى على عدد من المكونات، فى مقدمتها الاعتراف.

وبالإضافة إلى هذا وذاك، كانت هناك دوافع ثانوية، فقد اكتشفت منذ وقت مبكر، على سبيل المثال، أن مشروعى البحثى يمكن استخدامه كآلية لتدريب الزملاء من صغار الباحثين (وكان معظمهم يعمل فى إعداد رسالة الدكتوراه) على اكتساب عدد من المهارات البحثية. وأعتقد أنهم تنبهوا فى وقت مبكر إلى أن كفاءتهم الأكاديمية تلقى رعاية سخية من خلال إنجازاتهم البحثية.

س: وماذا أيضا إلى جانب هذه العناصر الدينامية؟

جـ: كانت هناك عوامل بنيوية راعيت أن أوفرها فى إقامة الفريق الذى عهدتُ إليه بالعمل معى. وكانت هذه عناصر فيما يمكن أن تسميه بالحكمة العملية التى تجد نفسك وقد اكتسبتها شيئا فشيئا. مثال ذلك: ضرورة الحرص الشديد فى اختيار الأشخاص الذين يتألف منهم الفريق؛ إذ يجب أن يكونوا على درجة معقولة من الطموح، الذى لا يخلو من بعض التواضع مع قدر معقول من الحياء الاجتماعى. كما ينبغى أن يكون اهتمامهم بالبحث وبالإنجاز البحثى مركزيا بالنسبة لطموحاتهم. وفى هذا الإطار يكون خطأ فادحا أن تدعو الأنداد للاشتراك كأعضاء دائمين فى الفريق. ولكن أقصى ما يجوز هو أن تدعو بعضهم ليقوم بدور الخبير المؤقت.. يدخل لأداء مهمة محدودة، ثم يخرج من الفريق. وقد تعلمت هذه الحكمة من خلال خبرات قاسية. كذلك تعلمت أنه يجب علىَّ أن أتحاشى ـ ما أمكن ـ إضافة أعضاء دائمين جدد إلى الفريق؛ فمثل هذه الإضافة سوف تعامل من بقية أعضاء الفريق باعتبارها أجساما غريبة، وسرعان ما يتداعى الفريق نتيجة سلسلة من ردود الأفعال المعطّلة أو المدمرة. والقاعدة السليمة

تقضى بأنه عندما يكون لديك فريق عمل متكامل يعملون معًا لفترة زمنية طويلة فى مشروع يملى عليهم نوعا من تقسيم العمل ويستدعى ظهور أدوار محددة لكل منهم، فيجب أن يشجَّع على تكوين «نحن»، وإقامة الأسوار الخاصة به.

س : وماذا عن العقبات؟

جـ: نعم، واجهتنى بعض العقبات، ولكنها كانت غالبا من النوع الحميد. وربما كان هذا راجعا إلى نوع من المصادفات الطيبة، وربما كان مرجعه إلى أننى أنا شخصيا كنت أكبح جماح نفسى لكيلا أسهم فى خلق مثل هذه العقبات أو زيادة تفاقمها؛ فقد علمتنى الخبرة أن الناس يغلب عليهم الميل إلى مساعدتك إذا أديت الفريق عملك بالصورة الواجبة ولم يغلب عليك التباهى بذلك. وشيئا فشيئا تجد نفسك وقد أحطتَ نفسك بجو ودّى تشيع فيهِ السمعة الطيبة داخل العالم الأكاديمى وخارجه. وهذا من شأنه أن يمكّنك من التغلب على مزيد من الصعاب، ويخفّض فى الوقت نفسه من احتمالات ظهور صعوبات جديدة. وجدير بالذكر أن موضوع تمويل البحوث لم يواجهنى قَطّ كعقبة كئود؛ لأننى، من ناحية، لم أعتد أن أتقدم لجهات التمويل بمقترحات بحثية تقتضى ميزانيات ضخمة لتنفيذها، ومن ناحية أخرى فقد كان القائمون على أمر المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ـ وهو الجهة التى كانت راعية لمعظم بحوثى فى مجال تعاطى المخدرات ـ كانوا حريصين على أن تظل بحوثى جارية، فقد تبين لهم أنها بحوث لها أصالتها وكفاءتها. لذلك تقدمنا فى بحوثنا تقدما سَلِسًا، فلا تخفيضات فى الميزانيات، ولا مفاجآت تخذلنا.

أما خارج المركز فربما كان من المتصوَّر قيام بعض العراقيل البيروقراطية، ولكننى اعتنيت بهذا الجانب بطرق مختلفة. مثال ذلك: ما حدث فى سنة ١٩٦٧، فقد وضعت الخطط لاستبار ٩٣٩ رجلا كانوا موزعين على السجون المصرية فى جميع أنحاء البلاد، حيث كانوا يقضون مدد الأحكام الصادرة عليهم بجريمة تعاطى القنب. وكجزء مكمل للبحث نفسه، كان يلزمنا استبار ٩٥٠ رجلا

آخرين كمجموعة ضابطة تُستمد من السجون نفسها من غير المحكوم عليهم فى قضايا التعاطى. وكانت هذه العملية فى جملتها مهمة كبيرة بكل المقاييس. ومما زاد من تعقيدها أننا صممنا على أن يجرى استبار الأفراد وتطبيق عدد من الاختبارات الموضوعية عليهم فى جو يحمل أقل قدر ممكن من التهديد حتى نوفر الجدارة العلمية للبيانات التى نحصل عليها. وقد استلزم تحقيق هذا الشرط أن يجرى استبار كل فرد واختباره، فى جميع السجون، تحت شرط الخصوصية التامة (بمعنى أن ينفرد به الباحث النفسى انفرادا تاما طوال المدة اللازمة للاستبار والاختبار).

ويمكنك أن تتصور عند هذه النقطة الكم الهائل من العقبات مختلفة الأنواع التى كان من الممكن أن تُحشد فى مواجهتنا، ولكن لكى أتغلب على هذا الخطر الكامن قررتُ أن أستفيد من موقع ممتاز كنت أشغله فى ذلك الوقت؛ ذلك أننى كنت قد دعيتُ منذ أوائل الستينيات إلى إلقاء سلسلة محاضرات فى علم النفس الاجتماعى على عدد من كبار ضباط الشرطة؛ وقد كانت هذه خبرة مفيدة وسارة لجميع الأطراف، فقد أتاحت هذه الفرصة قيام علاقات إنسانية ودودة بينى من ناحية، وعدد من هؤلاء الضباط من ناحية أخرى. وعندما بدأت أخطط لمشروع بحث التعاطى، شعرت منذ البداية بأننى لن أُواجَه بمشكلات فيما يتعلق بتوفير الإجراءات المطلوبة فى السجون، فقد كان مدير مصلحة السجون وعدد كبير من ضباط السجون ممن تلقوا محاضرات علم النفس معى؛ ومن ثم فقد قمت بزيارتهم جميعا فى مكاتبهم وشرحت لهم مشروعنا البحثى. وكانت هذه الزيارات هى كل ما لزمنى القيام به تمهيدا للتنفيذ، فصدرت لنا (أنا وأعضاء فريق البحث) التصريحات الرسمية للقيام بمهمتنا بالصورة التى نراها واجبة، وبدأنا التنفيذ فى منتصف يونية سنة ١٩٦٧. وفى خلال ثلاثة أشهر كنا قد انتهينا من جمع البيانات اللازمة لنا (Soueif 1971).

س: معروف عنك أنك كنت تعمل عن طريق الإشراف أو العمل البحثى المباشر فى مجالات بحثية متعددة ولفترات طويلة، وقد أنتجتَ ونشرتَ فى هذه المجالات المختلفة، وكاملت بين بحوثك فى الإبداع وفى الشخصية وفى علم النفس العيادى. ولكن هذه القاعدة لم تصدق فيما يتعلق ببحوثك فى المخدرات. وربما تساءل البعض، مثلا، لماذا لم تبحث فى العلاقة بين الإبداع وتعاطى القُنَّب؟ فالموضوع بالغ الطرافة ويبدو واعدا.

جـ: من بين الأمور التى تملأ علىَّ نفسى، أننا عندما نعمل فى حقل العلم التطبيقى يصبح من واجبنا الالتزام بعدد من المطالب والقيود؛ إذ يلزمنا أن نعيد ترتيب أولوياتنا البحثية لنضع فى المقدمة ما نشعر بأنه أكثر تلبية للاحتياجات الاجتماعية. فأنا لاشك عندى فى أن مشكلة العلاقة بين الإبداع وتعاطى القنب مشكلة هامة من زاوية النظر الأكاديمية. ولكن تعليقى كان دائما، ولا يزال، أن هذه النقطة يمكن دراستها فيما بعد. أما الآن فهناك مسائل أخرى على جانب أكبر من الأهمية بالنسبة للمجتمع (وكذلك بالنسبة لمجلس خبراء المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية الذى يرعى بحوثى الجارية أدبيا وماديا). فمثلا، التساؤل حول ما إذا كانت هناك علاقة جوهرية بين التعاطى المزمن للقنب من ناحية، وأن تدهور قدرات العامل فى عمله يعتبر ذا أهمية مباشرة للمجتمع. وهذا بالضبط ما حدا بنا منذ البداية إلى اختيار أدوات البحث على الوجه الذى فعلناه، فقد اخترناها كذلك للإجابة على ذلك السؤال؛ إذ أضفنا إلى الاستبار المقنن بطارية من الاختبارات الأدائية اللازمة لقياس عدد من متغيرات نفسية بعينها. انظر فى هذه البطارية عن قُرب وستجد أنها تقيس عددا من القدرات الهامة بالنسبة للاشتغال بالأعمال الحاذقة؛ من هذا القبيل سرعة الأداء الحركى، وسرعة ودقة الإدراك، وتقدير الزمن، وتقدير المسافات، وتركيز الانتباه... إلخ. والكلام نفسه يصدق على السبب الذى من أجله تضمن الاستبار الذى طبقناه فى المراحل المبكرة من بحوثنا، إذ احتوى هذا الاستبار على بنود تهدف

إلى استكشاف قدرات العمل لدى من نستبرهم، بالإضافة إلى أساليب هؤلاء المستبرين (المتعاطين) فى معالجتهم واجباتهم الاجتماعية وعلاقاتهم الشخصية.

س : وماذا عن استحداث التكامل بين الخطوط البحثية المختلفة؟

جـ : عندى فى هذا الصدد تعليقان؛ الأول: أن الطريقة التى قاربتُ بها بحوث التعاطى تختلف عن الطريقة التى تحركت بها من الإبداع إلى علم النفس الاجتماعى، ثم إلى البحث فى بناء الشخصية، وأخيرا إلى مجال علم النفس العيادى. فقد جاءتنى بحوث تعاطى المخدرات من خارج ذاتى؛ إذ كلَّفتنى هيئة اجتماعية بعينها، فى وقت معين، أن أستثمر مهاراتى البحثية فى هذا المجال. أما بالنسبة للمجالات البحثية الأخرى، فقد وجدتنى أخطو من واحد إلى الآخر فى سياق عملية نمو طبيعية. هاتان طريقتان مختلفتان إحداهما عن الأخرى، إذ تعتمد الطريقة الأخيرة على ترسُّخ ميول سابقة عندى، وعلى أن هذه الميول كانت محتواة فى رؤى تنطوى على ميول قديمة وتتجاوزها. أما الطريقة الأولى (التى نَفَذ بها موضوع بحوث التعاطى إلىَّ) فلا تحتوى بالضرورة على أى شىء من هذا القبيل.

ومع ذلك، فأنا عندما أتأمل توجهى نحو بحوث التعاطى، أجدنى دخلت هذا الميدان حاملا معى ميولا سبق لى أن تعهَّدتُها ونمَّيتُها فى ميادين أخرى. إلا أن معظم هذه العناصر عناصر منهجية، ويتم التكامل بين بعضها وبعض داخل ميدان التعاطى بطريقة غاية فى الرهافة. من هذا القبيل مثلا ما أوليته من عناية فائقة للأسلوب الذى اخترتُ به بعض أدوات البحث أو كوّنت به البعض الآخر؛ والأسلوب الذى تناولت به أنا وزملائى أعضاء الفريق تكوين استمارة الاستبار. فقد أنفقنا عامين كاملين فى التجريب على أنواع مختلفة من الكلمات والعبارات والتسلسلات نطبقها على أعداد كبيرة نسبيا من الأفراد يمثلون مراحل عمرية مختلفة، ومستويات تربوية متعددة، ومناشئ متباينة، حتى وصلنا إلى اقتناع بالنص الذى عزمنا على تطبيقه فيما أجريناه من مسوح. ولما كانت هذه التجربة لم تنشر

بالإنجليزية، فإن القارئ الغربى لبحوثنا لا يدرى عنها شيئا، إلا أننا نشرنا عنها بالعربية تقريرا مفصلا (لجنة بحث التعاطى ١٩٦٠)، وكان من بين محتويات هذا التقرير خمس صور أو صياغات لفظية مختلفة لاستمارة الاستبار، ولم نكن راضين عن أربع منها لأسباب أثبتناها فى صلب التقرير، وارتضينا الصيغة الخامسة. ومن الواضح فى هذه التجربة المبكرة أنها تكشف عن اهتمام عميق بكثير من مشكلات المنهج التقنية والنظرية، وهى نوعية من المشكلات لا أزال أكتشف أنها تتخلل كتاباتى البحثية المتأخرة. وفى الوقت الحاضر لا أجد هذا النوع من المادة المنهجية فى معظم الأدبيات المنشورة حول التعاطى، وهذا ما يوضح أننى أتيت بها معى من المجالات البحثية الأخرى التى أهتم بها.

س: يلاحظ أن معظم أعمالك العلمية لم تكن ـ عندما بدأت أنت العمل والنشر فيها ـ لم تكن من المباحث الرائجة فى الميدان. هذه حقيقة تنطبق على بحوثك فى تعاطى القنب، وفى الإبداع، وفى الاستجابات المتطرفة. فهل كانت قراراتك بالاشتغال بهذه المباحث مقصودة عن عمد؟ أو كانت هذه القرارات نوعا من التحدى؟ أم أن هذه الأمور كلها جاءت مصادفةً ؟

جـ: لا، لم تكن تحديا، ولا جاءت عن قصد وتدبير؛ ذلك أن مصادر الإيحاء بمشكلات بحثية جديدة، بالنسبة لأى باحث، تتلخص فى مصدرين: إما تقارير البحوث المنشورة بالفعل، أو خبرات الحياة. وما حدث فى حالتى، بالنسبة للأمثلة الثلاثة التى ذكرتها، هو أنى وجدتنى أمام ظواهرها وجهًا لوجه. فاهتمامى بالاستجابات المتطرفة ظهر (فى سنة ١٩٥١) فى ثنايا دراستى الخصالَ التى يبحث المراهقون عنها فى صداقاتهم الشخصية؛ فقد بزغت أمامى بوارق خافتة لنوع من الانتظام فى أسلوب الاستجابة، بغض النظر عن مضمون السؤال. ولما لم أكن قد قرأت أى شىء من قبل فى هذا الصدد، ولم يكن عندى أى تأهب عقلى مسبَّق لمعالجة هذا الانتظام، فقد وقفت عاجزا عن فهمه، وإن كنتُ شعرت فى الوقت نفسه أنه قد ينطوى على شىء قيّم. لذلك جمعت البيانات واحتفظت بها فى مكتبى. وحدث بعد ذلك، فى سنة ١٩٥٥، أن

سافرتُ إلى لندن لدراسة بعض المناهج المناسبة لبحوث ما بعد الدكتوراه، فى معهد الطب النفسى (بجامعة لندن). وبينما أنا أواصل السعى باحثا عما عساى أجده للقراءة حول بطارية منيسوتا لمقاييس الشخصية المعروفة باسم MMPI، وقعت عينى على ورقة **لبرج وكوللبير Berg & Collier** بعنوان «الشخصية والفروق الجماعية فى الاستجابات المتطرفة» (Berg & Collier 1953) وفى التو واللحظة أصابنى رنينها. عندئذ تحدثت مع الأستاذ **أيزنك** حول قصتى فى هذا الصدد، وهذا بدوره شجعنى على أن أعيد النظر فيما سبق لى أن جمعته من بيانات، وأن أحلّلها بالعناية الكافية وأن أبادر إلى النشر.

كذلك الحال فى موضوع الإبداع. (سويف ١٩٥١). فقد بدأت القصة كلها لأننى كنت مهتما بالإبداع فى الشعر. كنت أقرض الشعر وأكتب القصة وأنا فى العقد الثانى من عمرى. فلما بلغت العشرين وأصبحت على وشك التخرج، تحولت إلى الاهتمام بالبحث العلمى فى حقل علم النفس. عندئذ وجدتنى متعلقا بأن يكون موضوع دراستى هو الإبداع الشّعرى. وأخذت هذا التعلق مأخذ الجد، وبدأت أنظر فيما عساه أن يكون منشورا بالفعل فى هذا المجال؛ لكننى لم أجد شيئا يذكر يتبع خطوات منهجية محددة، فقررت أن أعتمد على جهدى الخاص.

س: وماذا عن بحوثك فى القنب؟

جـ: تكرر الشىء نفسه فى ميدان تعاطى القنب؛ فقد اتصل بى فى هذا الصدد المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، ورحبتُ بهذا الاتصال لا لشىء إلا لإثبات أن خبراتى الأكاديمية يمكن أن تقدم شيئا نافعا اجتماعيا؛ وعندما بدأت فى إجراء البحث فعلا اكتشفت أنه لا يكاد يوجد نشر علمى ذو بال فيما يتعلق بسلوكيات التعاطى. ولذلك كان علىَّ أن أبدأ من الصفر.

خلاصة القول إن ما حدث فعلا هو أن بعض الخبرات الحية دفعتنى دفعا إلى الاهتمام بفهم بعض المشكلات وتفسيرها. وعندما بدأت أخطو بالفعل خطواتى الأولى فى هذا الصدد، لم أجد فى الأدبيات المنشورة ما يعيننى فى دراساتى.

وفى هذه المرحلة كنت وصلت إلى درجة من الانغماس فى الموضوع استحال علىَّ معها أن أتراجع. ولا أظن أن هذا يمكن أن يسمى تحدّيًا، ولكن ربما جازت تسميته النفور من الإحباط العقلى. بل إننى أشعر أن الخواء الذى واجهنى عمل فى نفسى على إطلاق نوع من الجسارة أو روح المغامرة. وهنا أجد لدى ملحوظة جديرة بالذكر تتعلق بالطريقة التى يدرك بها الباحثون مشكلات البحث. يبدو لى أن بعض الباحثين يصنّفون ما يدركونه من مشكلات إلى نوعين: مشكلات للبحث، ومشكلات ليست للبحث. وهم يعنون بالحديث عن «مشكلات للبحث» تلك المشكلات التى سبق أن نظر فيها غيرهم من قبل (هم يعنون ذلك ضمنا لا صراحة). وفى رأيى أن هذه المقدمة لا يجوز أن تُقبل باعتبارها أمرًا مسلَّمًا به.

س: أما عن نزوعك إلى العمل لفترات طويلة (لعقود متوالية) حول ذات الموضوع فأمر لافت للنظر. ألا تمر بك فترات تشعر فيها بأن شحنة الدفع لديك قد نفدت؟ وإذا صح ذلك، فما هى الآليات التى تعود بك إلى جادة الدفع مرة ثانية؟

جـ: ثمة فرق بين العمل فى ذات الميدان والانشغال بالموضوع نفسه.

نعم، يحدث كثيرا أن أظل أعمل فى الحقل نفسه لعقود متوالية، ولكننى لا أستمر فى التركيز على نقطة واحدة لفترات بمثل هذا الامتداد. ما يحدث عادة هو أنك بمجرد أن تبدأ البحث فى موضوع بعينه فهو لا يلبث أن يتفتّق عن جوانب مختلفة. وقد تخرج هذه العملية، (عملية التفتق أو التفتح) عن سيطرتك أحيانا. ومن هنا كان من اهتماماتى المبكرة أن أحدد وأنمى من المهارات ما يقتضيه حسن التعامل مع هذا الموقف. ولذلك أصبح من استراتيجياتى الفكرية فى الوقت الحالى أن أبدأ بالتجوال المتواصل حول الموضوع الذى أريد دراسته. بمعنى أننى أحب أن أبدأ باستثارة أكثر الأفكار تركيبا أو تعقدا حول الدراسة التى أنا مقبل عليها.. كل ما يمكن تصوره من علاقات ومترتبات تحيط بالموضوع. أحقق ذلك

عن طريق بعض القراءات؛ ولكن ما أعتمد عليه فى هذا الصدد أكثر من القراءة هو أن أستثير فى نفسى نوعا بعينه مما يمكن أن تسميه بـ «الاستقبالية»، فأُصبح مستقبِلاً حسَّاسا لما يرد إلىَّ من أفكار فى أعقاب مرحلة من التأمل المكثَّف؛ وهى عملية بالغة التعقيد لا تزال تستعصى على قدرتى على وصفها وصفا دقيقا. على أى حال، هذه هى المرحلة التى إذا اجتزتها أتمكَّن من النظر فى أجزاء المشكلة الأصلية واحدا بعد الآخر. وربما كانت هذه الاستراتيجية هى التى تُحصّننى ضد الملل المبكر، فقد أصبح ذهنى يحمل فى داخله تمثُّلاً للكل؛ وهذا من شأنه أن يجعلنى أشعر معظم الوقت بأن ما أنجزه إنما هو جزء من الكل الذى انتويت أن أعالجه. ربما كنت هنا مواجهًا بما يسميه البعض أثر العمل الناقص، أو ما يسمى اصطلاحا بأثر **تسيجارنيك** (نسبة إلى الباحثة التى عنيت بالدراسة التجريبية لهذا الأثر).

س: فى وقت مبكر جدا من مسيرتك قمت بأسفار كثيرة: تلقيت الاستضافة كباحث، وكأستاذ زائر، وشاركت فى مؤتمرات واجتماعات، وأعطيت استشارات وشهادات؛ بحيث أصبحت معروفا عالميا. ومع ذلك بقيت محليا، بمعنى أنك أبقيت على اهتمامك بأمور محلية، وبقيت تعطى القدر الكافى من وقتك لهذه الأمور؛ من هذا القبيل ترسيخ علم النفس الإكلينيكى كمنظومة مستقلة فى حقل الخدمة النفسية فى مصر، وتأسيس قسم لعلم النفس فى جامعة القاهرة، والإشراف على قيام أول أكاديمية للفنون فى مصر. فكيف تسنى لك ذلك؟.. وهل تعانى من أية صراعات بين التزاماتك الوطنية والدور الذى تقوم بها عالميا؟

جـ: مضى علىَّ الآن وقت طويل وأنا أعيش هذه الهوية المزدوجة؛ فمن ناحية أشعر بأننى مواطن عالمى، ومن ناحية أخرى أجدنى منتميا إلى مصر. ويرجع هذا «الوعى المركَّب» ـ أو هذا التذبذب ـ إلى أواخر الخمسينيات عندما كنت أجرى أول بحث إكلينيكى فى مصر (بمستشفى العباسية للأمراض النفسية)، وكنت فى الوقت نفسه أخطط لنشر هذا البحث فى الخارج. وتم النشر فعلا فى شكل ورقة

بعنوان «تطبيق اختبارات الإصابة الدماغية على المرضى النفسيين المصريين»، وذلك فى دورية Acta Psychologica (التى تُنشر فى أمستردام). كانت هذه أول خطوة أخطوها فى الطريق إلى تأسيس جماعتى المرجعية، وأعنى بها فى هذه الحالة مجموعة من العلماء العالميين يمكنهم الحكم على بحوثى اعتمادًا على جدارتها الموضوعية.

ولا شك أن هويتى العالمية ارتفعت فى مدارج الرقى من خلال صلتى بمنظمة الصحة العالمية. كان ذلك فى سنة ١٩٦٦ عندما اتصلت بى المنظمة تطلب إلىَّ أن أعد لهم تقريرا للنشر فى «دورية المخدرات» التى تصدرها الأمم المتحدة حول بحوثنا عن «تعاطى الحشيش فى مصر»، وهى البحوث التى بدأنا فى إجرائها منذ أواخر سنة ١٩٥٧. وقد استجبتُ للطلب، ونشر التقرير فعلا فى الدورية المذكورة فى سنة ١٩٦٧ (Soueif 1967). وفى سنة ١٩٧٠ دعتنى المنظمة للمشاركة فى اجتماع علمى تعقده فى مقرها فى جنيف، وكان الاعتراف الذى حظى به بحثى مُرضيا لى كل الرضا (WHO 1971). وفى سنة ١٩٧١ دُعيتُ لكى أكون عضوا فى لجنة خبراء بحوث التعاطى فى المنظمة، وشعرت إزاء ذلك بتشريف رفيع المستوى. وقد ترتب على هذا الحدث نتيجتان على جانب كبير من الأهمية:

أولاهما: أننى دعيت على مر السنين التالية إلى المشاركة فى عدد من الاجتماعات التى كانت منظمة الصحة العالمية تدعو إليها، أو تصدر الدعوة إليها من هيئات دولية أخرى (مثل «المجلس العالمى لبحوث المسكرات والمخدرات ICAA» فى سويسرا، أو «مؤسسة بحوث الإدمان» فى كندا.. إلخ). والنتيجة الثانية: أننى أصبحت أنشر التقارير بالإنجليزية عن معظم بحوثى (التى كنت أجريها مع الزملاء المصريين) وكان النشر يتم فى الخارج.

ومع ذلك فلم يحدث أن ثارت بين هذه الأحداث جميعا (بما تحمله من مترتبات نفسية اجتماعية) وهويتى المحلية أية صراعات. والسبب فى ذلك بسيط،

على الأقل بالصورة التى أفهمها. ويتلخص ذلك فى أننى لقيت التقدير عالميا على البحوث التى أجريتها محليا بصورة مستقلة. لذلك أجدنى أشعر دائما بأن مسيرتى العالمية جاءت كمكافأة لى على الأسلوب الذى أديت به دورى كعالم وطنى. والحصيلة النهائية التى أعيشها هى نوع من التفاعل القائم على الانسجام بين قطبى هويتى.

س: هل يمكن أن تحدثنى عن بعض الأشخاص الذين عملت معهم؟

جـ ـ عملت مع شخصيات مرموقة فى حقل علم النفس الأكاديمى مثل **أيزنك H.J.Eysencr**، **وشابيرو M.B.Shapiro**، **وجونز G.Jones**، **وفرانكس C.Francks**، **ويتس A.Yates**، **وبرنجلمان J.C.Brengelman**، وفى ميدان الاعتماد على المخدرات عملت مع **كاميرون D.Cameron**، **وهالباخ H.Halbach**، **وإيزبل H.Isbell**، **وكونيل P.Connell**، **وإدوارد إدواردز G.Edwards**، **وكالانت H.Kalant**، **ونحاس g.Nahas**، **وبيتون W.Paton**، **وسمارت R.Smart**، **وباير I.Bayer**، **وكروشتشيل T.L.Chruocel**، **وشوستر R.Schuster**، **وهاردن جونز H.Jones**، **وويكلر A.Wikler**، **وبريل H.Brill**، **وريزجونز R.ones**، **وآرتشر وإيفا تونج Archer & E.Tongue**.. ولم يكن هؤلاء مجرد خبراء بالمعنى التقنى الضيّق للكلمة، ولكن كانوا ـ إضافة إلى ذلك ـ أشخاصا على درجة رفيعة من النزاهة العلمية.

كان التفاعل بين العلماء ذوى الخلفيات القومية المتباينة فى أثناء مشاركتهم فى اللقاءات العالمية، كان دائما موضوعًا مثيرا لعقلى؛ وليس معنى ذلك أننى كنت أجد من الوقت ما يكفى لبحثه بصورة منظمة، ولكنى لم أكن أستطيع أن أكف عن مراقبة ما يجرى من حولى والتأمل فيه. لقد صادفنى فى مسيرتى العالمية كثير من الانحيازات، ومن التظاهر بمظاهر مختلفة لإخفاء هذه الانحيازات؛ وتفاوتت الإفصاحات عن ذلك كله على مدى واسع يتراوح بين أشكال من الوصاية، إلى أقدار من التحفُّظ لا مبرر لها، إلى صور من الاستجابات الصريحة فى جفائها. ومع ذلك لم أُصدم أبدا من هذه الأمور، لأننى واقعى فى نظرتى وتقديرى لما

يستطيعه الآخرون وما لا يستطيعونه، وتصل واقعيتى فى هذا الصدد إلى حافة التورط فى التشاؤم؛ فأنا أعرف مقدما أن الناس (علماء أو غير علماء) يبدأون بتصنيفك.. هذا ما تكشف عنه ألف باء البحوث فى مجال إدراك شخصية الغير؛ ومن ثم فقد كنت أعرف من البداية أننى مصنَّف باعتبارى عالِمًا يأتى من دولة فى العالم الثالث. وإلى هنا لا توجد مشكلة، لأنها قد لا تعنى أكثر من الإشارة إلى حقيقة موضوعية؛ ولكن المتاعب تأتى بعد ذلك، فثمة فروق فردية هائلة بين السادة الباحثين من حيث مواقعهم على بُعد «المرونة ـ التصلب» الذى يتجلى من خلال تعاملهم مع هذا التصنيف؛ فبعضهم يستطيع التغيير، وبعضهم يعجز عن التغيير، وغالبيتهم يقعون بين بين. وأنا من جانبى أحب أن أحتفظ بذاكرة حية فيما يخص بعض التأملات، فهى عندى جزء من اللعبة؛ ولكن ما هو أهم من ذلك بكثير أن أتخذ من مضامين هذه التأملات مشاهدات ضابطة تفيدنى عندما أحاول أن أسبغ التقدير الواجب على تصرفات أشخاص بأعيانهم مثل **ديل كاميرون وهانز هالباخ** وأمثالهما. فمما لاشك فيه عندى أن هذين الرجلين ومن شابههما كانا يمثلان قمة فى التغلب على واحد من أهم مصادر الضعف البشرى.

س : وماذا عن البُعد المصرى فى هذه الثنائية؟

جـ: عندما أنظر مدقّقا فى الجانب القومى أو المحلى من مسيرتى، لا أجد أى أثر لما يمكن أن يسمى بالتعصب الوطنى. فكونى أعيش فى مصر يبدو لى مجرد أمر مسلَّم به.. هو مسلَّمة من بين المسلَّمات التى يجب على المرء أن يدخلها فى اعتباره عندما يكون بصدد تنظيم الحاضر أو التخطيط للمستقبل، ومن شأن هذه المسلَّمة أن تملى عددا من المترتبات. من هذا القبيل مثلا أنه يلزمنى أن أكون مزدوج اللسان إذا كنت أهتم فعلا بالقراء الأجانب وأهتم باعترافهم؛ وازدواجية اللسان ليست بالأمر الهيّن، فأنت لا تستطيع أن تختزلها إلى مجرد حركة بندولية بين لغتين هما العربية والإنجليزية.

فواقع الأمر أنه يلزمك عند الممارسة أن تطفئ أسلوبا متكاملا من التفكير والشعور والتعبير؛ وعليك فى الوقت نفسه أن تضبط نفسك على مقاس موجة أخرى مغايرة تماما. وفى بداية المسيرة تجد أن هذه المهمة شاقة فعلا ومليئة بلحظات الإحباط، ولكنك تقبلها على علاَّتها لأنك أنت الذى اخترت هذه المسيرة، ثم إذا بك شيئا فشيئا تنجح فى اكتساب المستويات المناسبة من المهارات اللازمة، وتأخذ متاعبك فى التناقص، ولكنها لا تختفى تماما.

ومن المترتبات كذلك أنه لابد لك من قبول شحنة مزدوجة من المسئوليات طوال الوقت؛ وأنا أشير بذلك إلى واجباتك المحلية (من هذا القبيل: الجامعة، والعيادة الخاصة، والمشاركة فى عدد من اللقاءات المحلية، والكتابة فى الدوريات المحلية)، وإلى المسئوليات العالمية (كاللقاءات والكتابات). ولا يسعك أحيانا إلا أن تعتذر لهذا الجانب أو ذاك، ولكن لابد لك من الحرص الشديد إذا كنت مبقيا على الاستمرار فى أداء الدورين بالسلاسة الواجبة، وربما احتجت إلى إعمال الجهد الخلاق لكى تجد بعض مواضع الالتقاء بين الدورين، وحينئذ تجد أن النتيجة مجزية جدا.

ومن المترتبات أيضا أن تجد دورك يعاد تحديده شيئا فشيئا.. إذ تكتشف أنك لم تعد مجرد عالِم محلّى ذى رنين عالمى، بل تحوَّلت إلى ناقل للحضارة أو إلى جسر للعبور بين حضارتين؛ ويصبح واحدا من واجباتك أن تقوم بدور الوسيط بين حضارتين، فيلزمك كلما هممت بعبور السور من واحدة إلى الأخرى أن تقدم خدمة للمقيمين على الجانب الآخر. وبطبيعة الحال يجب أن يظل ما تحمله معك فى رحلاتك هذه ناتجا من نواتج الجهد العلمى، ولكن هذا الناتج يكون أحيانا ثانويا فى قيمته، ومع ذلك يظل فعَّالا فى تنمية عمليات التفاهم المتبادل بين الباحثين الذين يعنيهم تجاوز الحواجز القومية و/أو الحضارية. وتزداد أهمية هذه النقطة الأخيرة عندما يتعلق الأمر بمجال كمجال بحوث التعاطى.

س: أرجو أن تعطينا فكرة عامة عن المشهد كما تراه الآن داخل مجال بحوث القنب. ما هى الموضوعات الرئيسية التى لا تزال تنتظر المعالجة؟

جـ: ينصرف اهتمامى أساسًا إلى العلاقة بين القنب والسلوك البشرى. ويعتبر حجم ما تم إنجازه ونشره فعلا فى هذا المجال ضخما بكل المقاييس، ومع ذلك لا يزال هناك الكثير فى انتظار المعالجة. والواقع أن أدبيات البحث فى هذا الحقل غير متوازنة، فهناك وفرة من البحوث فى الآثار المباشرة (والعوامل النفسية الاجتماعية المرتبطة بها) على صغار الشباب من الذكور الأصحاء ممن ينتمون إلى أسر من الشرائح الاجتماعية المتوسطة أو العليا؛ ولكننا نحتاج إلى بحوث تتناول الآثار طويلة الأجل لهذا المخدّر؛ وأنا أعنى هنا طول الأجل أو الإزمان بالمعنى الحقيقى للكلمة، حيث تجد أناسًا استمروا يتعاطون القنب بانتظام لمدة ١٥ أو ٢٠ سنة. وقد أوصى المجلس الاجتماعى والاقتصادى التابع للأمم المتحدة، بقراره رقم ٢٢/ ١٩٨٤ الصادر حول موضوع القنب، أوصى بضرورة مواصلة ـ بل تسريع ـ البحث العلمى حول الآثار طويلة الأجل لتعاطى القنب على الإنسان.

كذلك فإن مشكلة «ذُهان القنب» لا تزال تبدو كما لو كانت لُغزا. وربما كان أحد الأسباب المسئولة عن هذا الوضع المؤسف ما يمكن أن نسميه بالطبيعة الطارئة للبحوث المنشورة، وهو ما يبدو أنه القاعدة لا الاستثناء؛ ذلك أن هذه البحوث الطارئة تتسم بإجرائها على أعداد صغيرة من المتطوعين، وهم يؤخذون بطريقة طارئة، وكثيرا ما تجمع البيانات الإكلينيكية والديموجرافية منهم بأسلوب لا نعرف عن قيمته العلمية الحقيقية شيئا؛ ناهيك عن أن هذا كله يتم فى إطار تصميم غير مُحكم. وفى مواجهة هذه الحقائق فإن الحاجة ماسة إلى إجراء دراسات كبيرة الحجم، ذات بنيان منهجى سليم.

نحتاج كذلك إلى مزيد من البحوث على تعاطى القنب عند الإناث. وقد أجرى **جرينلاند S.Greenland** وآخرون مسحًا محدودًا على التعاطى عند الإناث

الحوامل، وكان من النتائج التى انتهوا إليها أن عملية الوضع تزداد صعوبة عند المتعاطيات عنها عند غير المتعاطيات. وتتفق هذه النتائج مع نتائج أخرى سبق النشر عنها خاصة بآثار القنب على الحيوان وعلى الأطفال حديثى الولادة، كشفت عن آثار سلوكية عصبية وارتقائية تفرق بينهم من ناحية، وأطفال الأمهات غير المتعاطيات؛ ولكن الباحثين أنفسهم أصحاب هذه الدراسات اعترفوا بأن دراساتهم صغيرة الحجم، مما يترتب عليه وجود هامش كبير للخطأ الإحصائى فى النتائج.

وما أراه أن هذا العمل يستحق أن يعاد إجراؤه فى معامل أخرى، وبوساطة باحثين آخرين، وعلى أعداد كبيرة نسبيا من النساء الحوامل والنساء فى سن الحمل.

س : هل يوجد متسع للبحوث الحضارية المقارنة فى هذا المجال؟

جـ: لا تزال الحاجة ماسة إلى إجراء البحوث الحضارية المقارنة، كبيرة الحجم، جيدة التصميم. ذلك أن هذه البحوث يمكن أن تكون فعالة فيما يتعلق بالتفرقة بين ما يرجع إلى كيمياء المخدر وما يرجع إلى أسلوب حياة المتعاطين. وقد حاول **آرتشر وإيفا تونج** فى وقت من الأوقات أن يقيما مجموعة تضم عدداً من فرقاء البحوث القوميين لمعالجة هذه المشكلة بصورة نظامية. كان ذلك فى منتصف سنة ١٩٧٧ عندما قاما بخطوات فى السبيل إلى تنفيذ هذا المشروع، وقد حظيا بتشجيع منظمة الصحة العالمية فى هذا الصدد. وفعلا دُعى مجموعة من الأعضاء المشاركين إلى اجتماع فى لوزان، وفى هذا الاجتماع نوقشت خطة البحث تفصيلا، لكن لم يقدر للدراسة أن تبدأ؛ ولعل هذه الخبرة أن تكون مصدرا لدروس تُستغل فى المستقبل فى السبيل إلى إنجاح دراسة من هذا القبيل.

كذلك فإن موضوع الفروق الفردية يثير كثيرا من التساؤلات التى لا تزال تنتظر الإجابات عنها. ومن أمثلة هذه الفروق: العمر، والذكاء، ومستوى الاستثارة العصبية، ومستوى الانفعالية، والانطواء/ الانبساط. وفى هذه الحالة يجب إدخال هذه الجوانب كمتغيرات معدّلة فى الدراسات المعملية والميدانية؛ فإذا أتيح

لهذه المتغيرات أن تعامل على هذا النحو، وإذا أتيحت لها التحليلات المناسبة، فسوف يساعد ذلك على استحداث قدر من التكامل بين كثير من النتائج البحثية التى تبدو الآن متضاربة؛ إذ ستصبح هذه النتائج منسوجة فى شبكة معقدة من العلاقات المنتظمة.

س: هل بالإمكان الوقوف على مراحل مختلفة فى استجابة المجتمع لمخدر كالقنب؟

جـ: فى سنة ١٩٨٦ سجَّل **هيملشتاين J.L.Himmelstein** مرحلتين متباينتين فيما سماه بالتاريخ الاجتماعى للقنب فى الولايات المتحدة الأمريكية؛ امتدت المرحلة الأولى من ١٩٦٥ إلى ١٩٧٧، وشهدت ما يدعى أحيانا بَرْجَزَةً للمخدر (أى احتضان الطبقة الوسطى للمخدر) واعتبار تعاطيه أمرًا سويا أو لا غبار عليه. ثم بدأت المرحلة الثانية حوالى سنة ١٩٧٨، واتسمت بقيام رد فعل ضد القنب؛ ذلك أن الرسميين فى الدولة انقلبوا على المخدر، وتأسست فى الوقت نفسه مئات من جمعيات الآباء تبدى اهتمامًا خاصا باتجاهات الأبناء نحو التعاطى. وتذكرنى هذه الدراسة من **هيملشتاين** بدراسة سابقة عليها قدمها **وليم ماكجلوثلين** فى أوائل السبعينيات (Mcglothlin 1973) تَتَبَّعَ فيها مجموعة العوامل الاجتماعية الحضارية التى سبقت مباشرة ظهور ثقافة القنب بين الشباب الأمريكيين. وفى نفس التوجه تأتى دراسة أخرى سبق أن نشرتُها فى دورية المخدرات (التى تنشرها الأمم المتحدة) سنة ١٩٧٢، وعنوان الدراسة «الجوانب النفسية الاجتماعية لتعاطى القنب فى مصر». والموضوع نفسه يحتاج إلى أن يعالج فى إطار مجتمعات غربية أخرى، إذ لا زلنا بحاجة إلى أن نفهم الكثير عن تعاطى هذا المخدر؛ فقد انتشر على نطاق واسع فى الغرب فى أواسط الستينيات كأنه الوباء. لماذا حدث هذا، وكيف؟.. لقد اعتاد علماء النفس والأطباء النفسيون أن ينظروا فى مشكلاتهم البحثية بنظرة ميكروسكوبية؛ لكن هذه النظرة لا تكفى فى حالة تعاطى القنب، إذ يحتاج الأمر إلى نظرة إضافية تكون من النوع الماكروسكوبى.

لقد نشر **سمارت** وآخرون دراسة جيدة التصميم أجريت على أعداد كبيرة من الراشدين والطلاب فى أونتاريو بكندا. وفى هذه الدراسة نظروا فيما يمكن أن يكون هناك من علاقة بين المشكلات المقترنة بشرب الكحوليات من ناحية، وتعاطى القنب من ناحية أخرى (Smart & Liban 1980)، وتبين لهم بعد إجراء التحليلات الإحصائية المناسبة أن المشكلات المقترنة بشرب الكحوليات يمكن أن تكون أفضل المنبئات بتعاطى القنب بين الراشدين وكذلك بين الشباب.

ويعتبر هذا العمل حول المنبئات بالتعاطى بالغ الأهمية فيما ينطوى عليه، كما أنه يستحق أن يعاد إجراؤه فى سياقات أخرى وعلى قطاعات اجتماعية أخرى.

خلاصة القول إن هناك ما يقرب من ست أو سبع نقاط لا تزال باقية تمثل ثغرات فى معلوماتنا حول العلاقة بين القنب والسلوك، هذه النقاط هى: الإزمان، وذهان القنب، وآثار القنب على الإناث، وآثاره من زاوية النظرة الحضارية المقارنة، والفروق الفردية كمتغيرات معدّلة، والتاريخ الاجتماعى للعقار فى المجتمعات المختلفة، ومشكلة المنبئات. وكوننا نعرف الآن عددا من المعلومات المتفرقة عن كل من هذه النقاط التى ذكرناها، يعنى أن ما نحتاج إليه فى الوقت الحاضر هو المعرفة الأفضل تنظيما. وما أراه أن هذه المعرفة المطلوبة تحتاج إلى أن تقام على أساس تناول نظامى، ومنهجية سليمة، وعينات كبيرة.

س: أنت الآن فى الثالثة والستين من عمرك، ولم تعد محملا بالأعباء الإدارية التى تستلزمها رئاسة قسم فى الجامعة؛ ولديك الآن فرصة طيبة للتركيز على إجراء البحوث، وهو ما يبدو أنك تقوم به فعلا. فما هى خططك للمستقبل؟ وهل هناك توجهات جديدة تنوى الانخراط فيها؟

جـ: كل هذا صحيح، فقد تحررتُ إلى حد كبير من الأعباء الإدارية؛ ولكن الصحيح أيضا أننى أصبحت محمَّلا بمسئوليات جديدة. فواقع الأمر أنك عندما تصل إلى هذه السن يتجه زملاؤك إما إلى نسيانك، أو يبدءون فى اعتبارك واحدا من الحرس القديم. . وهنا يخلعون عليك دور «الحكيم»، ويتوقعون منك أنواعا

شتى من المشورة من خلال العديد من اللجان والمجالس. وأنا فى الوقت الحاضر أزداد انغماسًا فى أداء هذا الدور، وأنا أقبله من كل قلبى ما دمت أرى أن مشورتى تؤخذ بصورة جادة وتوضع فعلا موضع الاستفادة.

أما عن خططى للمستقبل فبعضها واضح ومحدد، وبعضها الآخر لا يزال مبهما. من هذا القبيل مثلا ما أراه من أننى سوف أواصل مسيرة البحث فى مجال التعاطى لعدة سنوات قادمة. وفى هذا الصدد سوف أظل مرتبطا بأسلوب البحث الميدانى ما دمت أستطيع ذلك، وهو ما يعنى أننى سأظل أواصل العمل فى تنفيذ سلسلة بحوثنا الوبائية كبيرة الحجم حتى أنتهى بها إلى اكتمالها المنطقى.

ولكن هناك أحلام أخرى أود أن أتمكن من تحقيقها، وهى مع ذلك غير مؤكدة. من هذا القبيل مثلا: أننى أود أن يأتى اليوم الذى أكتب فيه قصة بحث المخدرات، فأذكر الأحداث والملابسات التى كوَّنَت معًا المناخ الاجتماعى والفكرى والدولى الذى أحاط بجهودى البحثية. ولست أعنى بذلك أن أكتب سيرة ذاتية، بل أعنى أن أكتب سيرة البحث نفسه. وتتمثل القيمة الرئيسية لهذه الكتابة فى أنها سوف تكشف عن بعض المحددات (وخاصة الاجتماعية والدولية) التى تدفع ـ وربما ترغم الباحث ـ على ارتياد المسلك الذى سلكه فى معالجاته البحثية. والحادث أن مثل هذه المحددات تظل خبيئة فى معظم الأحوال؛ فأنت لا تفتأ تقمع ذكرياتها ما دمت مشغولا بكتابة المقالات للدوريات البحثية عما أجريتَ وما وصلت إليه من نتائج. ومع ذلك فهذه بالضبط (أعنى هذه المحددات) هى النقاط التى يظل تلاميذى يسألوننى عنها، وقد اعتدت فى هذه المواقف أن أستجيب لأسئلتهم بتعاطف واضح، ولكنى لم أستطع قَطّ أن أعطيهم إجابة شافية؛ ولذلك تجدنى الآن آمل من كل قلبى أن أتمكن من تدوين هذه المادة فى المستقبل القريب، رغم أننى لا أعرف متى تتحقق لى هذه الرغبة ولا الصيغة التى سوف تتحقق بها.

وعندى أحلام أخرى غير هذا الحلم، إلا أننى أحتفظ بهذه الأحلام فى

المستوى النفسى الذى يلائمها.. فهى أحلام فى منتصف الطريق إلى الوعى الكامل، وهى تظهر وتختفى، لكنها لا تنقطع.

هذه أحلام يمكنك أن تسميها طموحاتى الدفينة أو السرية، وخلاصتها أن أصل يوما من الأيام إلى صياغة نظرية تُكامل فى ثناياها بين المعلومات العصبية / النفسية/ الفارماكولوجية والمعلومات الاجتماعية/ الحضارية التى نلم بها الآن. وأحلم بأن تعطى هذه الصياغة تفسيرا متوازنا لتعاطى العقاقير، وتوحى فى الوقت نفسه بفروض صالحة للاختبار. أما أننى سوف أتمكن من تحقيق هذا الحلم، فلا علم لى. ومع ذلك فأنا أستمسك به لأنه ـ أولا وقبل كل شىء ـ يمنحنى شعورا بالتوجُّه فى محيط حياتى الفكرية.

• المصادر العربية

- سويف (مصطفى)(١٩٥١) **الأسس النفسية للإبداع الفنى:فى الشعر خاصة،** القاهرة: دار المعارف.

- لجنة بحث تعاطى الحشيش فى مصر (١٩٦٠) **تعاطى الحشيش (فى الإقليم الجنوبى): التقرير الأول، استمارة الاستبار: تأليفها وحساب صدقها وثباتها،** منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة.

• المصادر الأجنبية

Berg, I.A.& Collier, J.S. (1953) Personality and group differences in extreme response sets, **Education and Psychological measurement**, 13, 161-169.

Carlini, E.A. & Masur, J. (1970) Development of fighting behavior in starved rats by chronic administration of (-) - Δ - transtetra-hydrocannalinol and cannabis extracts, **Community and behavioral biology**, 5, 57-61.

---------- (1974) Cannabis sativa and aggressive behavior in laboratory animals, **Archives of investigative medicine** (Mex.) 5 (Suppl.1), 161-172.

Durant, W. (1926) **The story of philosophy: The lines and opinions of the greater philosophers**, London: E.Benn.

Greenland, S., Richwald, G.A. & Honda, G.D. (1983) The effects of mariguana use during pregnancy, II- A study in a low - risk home - delivery population, **Drug and alcohol dependence**, 11, 359-366.

Himmelstein, J.L. (1986) The continuing Career of marijuana: backlash with limits, **Contemporary drug problems**, 13/1, 1-21.

Mcglothlin, W.H. (1973) Sociocultural factors in marijuana use in the United States. Paper presented at the IXth International Congress of Anthropological and Ethnological Sciences, Chicago, August - September 1973.

Smart, R.G. & Liban, C.B. (1980) Cannabis use and alcohol problems among adults and students, **Drugs & alcohol dependence**, 6, 141-147.

Soueif, M.I. (1958) Extreme response sets as a measure of intolerance of ambiguity, **British journal of psychology**, 49/4, 329-334.

Soueif, M.I. (1967) Hashish Consumption in Egypt: with special reference to psychosocial aspects, **Bulletin on narcotics**, 19/2, 1-12.

--------- (1971) The use of cannabis in Egypt: a behavioural study, **Bulletin on narcotics**, 23/4, 17-28.

--------- (1972) The social psychology of cannabis consumption: myth, mystery and fact, **Bulletin on narcotics**, 24/2, 1-10.

--------- (1975) Chronic cannabis users: further analyis of objective test results, **Bulletin on marcotics**, 27/4, 1-26.

--------- (1976) Some determinants of Psychological dificits associated with chronic cannabis consumption, **Bulletin on narcotics,** 28/1, 25-42.

--------- (1976) The differential association between chronic cannabism and impairment of psychological function: A theoretical framework. Paper prsented at the International Institute on the prevention and treatment of drug dependence, Hamburg, 28 June -2 July 1976, 106-118, (Lausanne: ICAA Publications).

WHO (1971) **The use of cannabis**, Technical Report No. 478 (Geneva, WHO).

الحوار الرابع

وقد نشر فى جريدة «الجمهورية»
فى أبريل ١٩٨٩

مسائل تطرق إليها هذا الحوار

- الوزن النسبى لمشكلة المخدرات فى مجتمعنا.
- من الذى يجوز له أن يتكلم فى أمور التخصص.
- مقارنة بين أسلوبنا فى مواجهة مشكلة المخدرات وأساليب المجتمعات المتقدمة.
- بعض نتائج البحوث المصرية فى موضوع تعاطى المخدرات.
- لماذا عاد الهيروين إلى الظهور فى مصر بين المتعاطين.
- حجم العناية (العلاجية) فى مصر بالتعاطى والمتعاطين.

الحوار الرابع

س: اختلفت التقديرات للحجم الحقيقى لظاهرة تعاطى المخدرات فى مصر. فهل وصلنا إلى مرحلة الأزمة فعلا؟

جـ: أود فى بداية الحديث أن أوضح أن موضوع تعاطى المخدرات ليس بالحجم ولا بالخطورة التى بدأنا نحس بها من خلال الكتابات الكثيرة والاهتمامات الإعلامية المتزايدة فى الفترة الأخيرة. وليس معنى كلامى هذا أننى أدعو الصحافة إلى تجاهل هذا الخطر أو التهوين من شأنه، لكننى أرى أنه من المفروض أن تكون الصورة متوازنة، بمعنى أن توضع العناصر المختلفة المكوّنة لهذه الصورة فى حجمها الحقيقى دون مغالاة.

س: فى إطار هذه الصورة المتوازنة، أين نضع أزمة تعاطى المخدرات على سلم الأزمات التى نواجهها؟

جـ: إلى جانب أزمة تعاطى المخدرات توجد أزمات كثيرة، بعضها يمثل الأزمة المحورية، وحول هذه الأزمة المحورية توجد أزمات أخرى متعددة تعتبر أقل وزنا. خذ مثلا المشكلة الاقتصادية فى جميع جوانبها، بدءًا من الجوانب الكبرى التى تتدخل فى علاقاتنا الدولية، مثل المديونية، إلى الحصول على السلع اللازمة للمواطن الفقير العادى.. هذه أزمة طاحنة. ورغم اشتغالى ببحوث التعاطى، فأنا لا أستطيع أن أخدع نفسى وأقول إن تعاطى المخدرات يمثل مشكلتنا الأولى.

خذ أيضا الخدمات بوجه عام كما يتلقاها المواطن وكما يحتاج إليها، والفارق بين ما يتلقاه وما يحتاج إليه منها، بدءًا بخدمات المواصلات إلى خدمات

الإسكان... إلخ؛ هل أستطيع بأى منطق معقول أن أرجّح عليها مشكلة المخدرات؟ لا أستطيع بأى حال من الأحوال.

خذ كذلك مشكلة هوية النظام الذى يعيش فى ظله المجتمع؛ إلى أى مدى نجد الحريات متاحة؟ وإلى أى مدى هى غير متاحة؟ هذه أيضا مشكلة. ولا يعنى ذلك المطالبة بأن تكون الحريات مطلقة. إلا أن هذه مشكلة تؤرّق نفوس المواطنين، أو على الأقل المواطنين الذين يعيشون القضايا العامة للوطن. ونحن نرحّب عادة بالمواطن المهموم بالقضايا العامة لأنه النموذج الإيجابى المضاد لنموذج المواطن السلبى الذى لا يشعر بالانتماء.

خذ أيضا أزمات توجد الآن فى صميم النسيج الاجتماعى... مثال ذلك الزواج وتكوين الأسرة بالنسبة للشباب الذين يُفترض أن نشجع لديهم التوجه إلى الاستقرار الأُسرى. كيف نحل هذه المشكلة، مع ملاحظة أنها مرتبطة أيضا بالأزمة الاقتصادية؟

خذ أيضا مشكلات العمالة والبطالة... إلخ.

هناك إذًا أزمات أو مشكلات كثيرة. ومع ذلك، فليس معنى كثرة المشكلات على هذا النحو أن المجتمع يواجه أخطارًا شديدة، إذ لا يوجد مجتمع بلا مشكلات أو أزمات. ولكن المسألة هى حجم الأزمات الموجودة، وإلى أى مدى تعوق حركة المجتمع، وإلى أى مدى توجد فعلا حلول واقعية متجهة إلى حل هذه الأزمات، ومقنعة فى الوقت نفسه للمواطن بأن مشكلاته وُضعت على الطريق إلى الحل.

بطبيعة الحال هناك جوانب يجرى فيها تقدم، وهناك إنجازات إيجابية وتطورات مُرضية، لكن هناك أزمات تقف فى مكانها ولا تكاد تتحرك نحو الانفراج، ناهيك عن الأزمات التى تنتاب علاقات مصر بالدوائر المختلفة فى العالم.

فى هذا الإطار المزدحم بالمشكلات لا يجوز أن نغالى فى تقدير الوزن النسبى لمشكلة المخدرات.

س: بماذا تفسّر إذًا الحجم الكبير الذى تحتله قضية المخدرات فى حياتنا حاليا؟

جـ: إذا اقتصرنا فى مجال الرؤية على مشكلة المخدرات، بمعزل عن بقية المشكلات، نجد أنه يوجد كلام كثير فى الصحافة وفى الندوات، والمحاضرات. وملاحظتى على هذا الكلام أنه يبدو، فى ظاهر الأمر، ردَّ فعل صحى صادر عن المجتمع وقد انتابه الخوف على مستقبل شبابه، وعلى معايير الصحة النفسية فيه... وهذا جميل. لكن فى بعض الأمور لا يجوز الاسترسال فى الكلام دون علم. وفى الجدل الدائر الآن يوجد مستويان: مستوى المتكلم ومستوى المستمع، والمسئولية فى هذا الموقف كبيرة على المتكلم. فالمتكلم لا يجوز له أن يتكلم إذا لم يتوفر لديه الحد المعقول من العلم الذى تعارفنا عليه فى حياتنا الاجتماعية ونحن نقول إن فلانا «متخصص»... هنا تكمن مسئولية العلماء... والواجب يقضى بأن من يُدعى للكلام يكون عنده من الضوابط الأخلاقية أو من رهافة الضمير ما يجعله يكف عن الكلام حيث لا يعلم.

س: وما هى مسئولية المجتمع، أى المستمع، إزاء العلماء أو المتخصصين؟..

وما هى مسئوليته إذا تجاوز بعضهم حدود ما يعلم إلى الخوض فى الحديث عمّا لا يعلم؟

جـ: توجد مسئولية على المجتمع، لأن المجتمع عندما يغرى أفراده بمزيد من الكلام إنما يفتح على نفسه أبوابا لا يأتيه منها إلا العذاب. فالدعوة المفتوحة والدفع الذى لا ينقطع، يغريان الكثيرين بالإقبال على الكلام، وأضرب لك مثالا: قرأت فى إحدى الصحف منذ وقت قريب أن بعض من أسمتهم الصحيفة بالعلماء يقدّرون نسبة انتشار الإدمان بين الشباب عندنا بما يقرب من ٦٦٪ من مجموع الشباب. وهو كلام لا قيمة له جملة وتفصيلا. وبحكم ما لَدَىَّ من معلومات ناتجة عن بحوث ميدانية منضبطة، أقول إن هذا كلام أبعد ما يكون عن الصواب، والنتيجة التى تترتب عليه هى إثارة الذعر بشكل لا مثيل له، وقد يصل بالبعض إلى أقدار من الاكتئاب والتشاؤم!.. وأسأل نفسى: من أين جاء المتحدث

الفاضل بتلك الأرقام؟ أم أن كل ما يهمه فى هذا الصدد أن يبدو ملكيا أكثر من الملك؟.. لا يجوز أن يكثر الكلام على هذا النحو وبهذا المستوى من الجهل.

س: لكن ألا يُعَدُّ هذا الانشغال من جانب المجتمع رد فعل صحى إزاء مشكلة تتهدده؟

جـ: إلى حد ما... نعم. لكن رد الفعل الأصح يتمثل فى الاتجاه إلى تشجيع التناول الجاد للمشكلة، وليس التوجُّه إلى الكلام فحسب.

س: ماذا تقصد بالتناول الجاد للمشكلة؟

جـ: تحديد الجهود التى يمكن استخدامها على نحو فعال، بدءًا من البحث العلمى بتخصصاته المتعددة والمختلفة، والتفكير الجاد فى تخطيط السياسات التى يجب انتهاجها، من علاج، وعقاب، وإعداد لقنوات تربوية قصيرة الأجل وطويلة الأجل... إلخ. أما الكلام العام والمطلق فلا يحل أية مشكلة. ومن هنا نفهم الفرق بين رد فعل مجتمعنا وردود الأفعال التى صدرت عن مجتمعات أخرى أكثر تقدُّما نحو هذه المشكلة نفسها.

فما الذى حدث فى أوروبا وأمريكا الشمالية عندما تفَجَّرت مشكلة تعاطى المخدرات بصورة تكاد تكون وبائية فى العام ١٩٦٦؟

بدأت هذه المجتمعات تتخذ خطوات فعلية نحو تشجيع البحث العلمى فى جميع أبعاد المشكلة، وتشجيع تطوير طرق العلاج النفسى، والطبى، والاجتماعى والقانونى... إلخ. وإمعانا فى الجدية رصدت هذه المجتمعات المنح المالية، وشكَّلت فرقاء للبحث، ودعت إلى عقد اجتماعات على مستوى المؤتمرات، وحلقات البحث بين المتخصصين فى فروع التخصص المتصلة بالموضوع... وهكذا لم يقف الأمر عند حدود الذعر والهلع؛ فبعد أن دقت الأجراس، وحدث التنبُّه اللازم، رأت القوى الاجتماعية أن تصدر القرارات بالاتجاه نحو تفعيل الحلول قريبة العائد وبعيدة العائد.

س: هل توجد بحوث كافية فى هذا المجال فعلا ؟

جـ: فى الفترة من عام ١٩٦٦ حتى الآن، أى عبر ٢٣ سنة، تراكم من البحوث فى بند واحد من بنود المخدرات ـ وهو بند الحشيش ـ آلاف البحوث فى العالم، ما بين بحوث كيميائية، وطبية نفسية، ونفسية، واجتماعية... إلخ، فى حين أن تعاطى الحشيش ظهر فى مجتمعنا منذ القرن الثانى عشر... وانقضت قرون بعد ذلك لم يظهر فيها بحث علمى واحد!.. وبهذه المناسبة أذكر أننى عندما بدأت فى عام ١٩٥٧ (ومعى فريق بحثى متكامل) فى الاهتمام بهذا الموضوع وحاولنا إجراء مسح شامل لما هو منشور من دراسات علمية فى هذا المجال باللغة العربية، لم نجد بحثا واحدا علميا بالعربية؛ صحيح أننا لم نجد كذلك إلا النزر اليسير من البحوث الأجنبية حول الموضوع نفسه، ولكن هذه الحقيقة الأخيرة مبرَّرة أو على الأقل مفهومة، لأن تعاطى الحشيش حتى ذلك الوقت لم يكن يمثل مشكلة فى المجتمعات الغربية. أما المفاجأة غير السارة حقا فهى ألا نجد بحثا واحدا باللغة العربية يمكن وصفه بالبحث العلمى. وفى غضون ٢٣ سنة فقط تراكمت آلاف البحوث بالإنجليزية، وتحت يدى الآن ببليوجرافيا تحتوى على أكثر من سبعة آلاف بحث. هذا هو أحد الفروق التى أتحدث عنها بين ردود أفعال صحية وأخرى غير صحية. إطلاق الطاقة العلمية بالفعل وليس إطلاق الطاقة بالكلام الحماسى فحسب. إلى جانب ذلك عقدت مئات المؤتمرات بين علماء وفئات أخرى من الفئات المؤثرة فى المجتمع (مثال ذلك: رؤساء نوادٍ، وتربويون، وأخصائيون اجتماعيون، وإعلاميون) فى جميع أنحاء العالم المتقدم. وقد دعيت أنا شخصيا للمشاركة فى عدد من هذه الاجتماعات الجادة. وبالإضافة إلى تنشيط البحوث العلمية بهذه الصورة، وتلك المؤتمرات التى أشرت إليها، دُفعت أجهزة المجتمع أو الدولة للاستفادة من نتائج البحوث التى لم تُجرَ بدافع الأُبَّهة أو مباهاة الأمم، بل أجريت لترشيد العمل الاجتماعى فى مجالات الوقاية والعلاج والتأهيل. وأذكر فى هذا الصدد مثالا واحدا يضع الخطوط المتعددة تحت ما أقول. لقد كلَّف الكونجرس الأمريكى المعهد القومى لبحوث تعاطى المخدرات

فى واشنطن بأن يقدّم له ولرئيس الجمهورية تقريرا سنويا عن حالة انتشار تعاطى المخدرات وخلاصة البحوث العلمية التى نشرت فى العالم. وقد بدأت هذه التقارير تُنشر سنويا منذ سنة ١٩٧١ وتُرفع إلى الكونجرس ورئيس الولايات المتحدة، لكى ينظر الكونجرس فى مسألة التشريعات القائمة، وهل هى كافية لمواجهة هذا الجديد أم لا. حدث هذا فى عام ١٩٧١، أى بعد أربع سنوات من تنبيه منظمة الصحة العالمية بأننا بصدد انتشار وبائى للمخدرات. وبدأ الكونجرس يأخذ الأمور مأخذ الجد، فيرسل فى طلب الباحثين من المراكز المتخصصة، وتنتقى هذه المراكز بطريقة محترمة باحثين متخصصين لكى يدلوا بشهاداتهم أمام لجان استماع محدودة العضوية. وقد كنت أنا شخصيا واحدا من هؤلاء، حيث دُعيتُ مع ١٥ عالما من أنحاء مختلفة فى العالم للإدلاء بشهادتى أمام إحدى لجان الكونجرس، وكانت برئاسة **السناتور جورنى**، وذلك فى منتصف مايو سنة ١٩٧٤.

س: وماذا كان موضوع شهادتك أمام اللجنة ؟

جـ: عن مخدر الحشيش (أو القنّب)، وتأثيره على الإنسان.

س: هل لك أن تحدثنا عن الدرس الرئيسى المستفاد من هذه المقارنة التى أجريتَها الآن بين أسلوب مجتمعنا وأساليب المجتمعات الأخرى المتقدمة فى التصدى لمشكلة المخدرات؟

جـ: الكلام قد يبدو ثقيلا على النفس، ولكن هذا كلام يقال لوجه الحقيقة.

إن البحوث تُجرى منذ نوفمبر سنة ١٩٥٧ على وجه الدقة، تجرى هنا فى مصر، حول تعاطى المخدرات، وذلك فى إطار المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية؛ وهذا المركز مرفق من مرافق الدولة، ويُنفق عليه من ميزانيتها. ومعنى ذلك أن تكون الدولة على علم، بصورة ما، بأمر هذه البحوث، ومع ذلك لم يوجد من يهتم بها. هذا كلام يعزُّ علىَّ أن أقوله. لكن واجبى يحتّم علىَّ أن أقوله، كجزء من مسئوليتى كرجل وُضعتُ موضع السؤال وقد طُلب إلىَّ أن أتكلم.

النقطة المهمة هنا هى: كيف يكون رد الفعل حاليا؟.. فى هذا الصدد كان المفروض أن يكون التوقيت مختلفا، وأن يكون شكل رد الفعل مختلفا كذلك، وألا يبقى رد الفعل لفترة طويلة على مستوى الهياج العشوائى. ولعلك تذكر أن هذا الهياج، أو هذه الفورة الكلامية، بدأت فى عام ١٩٨٥ ثم هدأت فى العام ١٩٨٦. ثم عادت لتبدأ بشكل عنيف فى الشهور الأخيرة.

س: ما هو اعتراضك على هذه الفورة؟

جـ: يجب أن يقل الكلام، وأن ننتقل إلى الفعل، فكثرة الكلام نفسها تحمل معها أضرارا.

س: مثل ماذا؟

جـ: من أضرارها الخطيرة فى هذا الموضوع الذى نحن بصدده؛ أنها قد تثير حب الاستطلاع عند عدد من الشباب كان من الممكن ألا يتعرضوا لهذا الداء ما لم يعلموا بوجوده.

س: وبعد هذه الفورة، هل ترى أننا بدأنا نسير فى الطريق الصحيح لتناول المشكلة؟

جـ: توجد بدايات للسير فى الطريق الصحيح، ذلك أنه من محاسن الصدف أنه يوجد بحث علمى مستمر منذ أواخر سنة ١٩٥٧، ومن ثم يتوفر لدينا قدر كبير من المعلومات يمكن أن يكون مرشدا جيدا لخطواتنا. ومن ناحية ثانية، اتخذت الدولة خطوة هامة بتشكيلها المجلس القومى لمكافحة وعلاج الإدمان. وهذه خطوة على الطريق السليم كانت قد أوصت بها منظمة الصحة العالمية؛ فهذا مجلس يتألف من عشرة وزراء تتداخل اختصاصات وزاراتهم بشكل مباشر أو غير مباشر مع مشكلة المخدرات، ويرأسه رئيس مجلس الوزراء. ومن ناحية ثالثة يوجد بعض النشاط الأهلى أو غير الحكومى لا بأس به؛ ولكن رغم ترحيبى بهذه الخطوات فإنى أرى أنها شديدة البطء.

س: فلننتقل من منهج تناول مشكلة المخدرات إلى المشكلة ذاتها. إننا نجد أنفسنا أمام تقارير متناقضة حول تقدير عدد المتعاطين للمخدرات؛ يقول بعض هذه التقارير إن عددهم لا يزيد على مائة ألف متعاطى؛ على حين تقول تقارير أخرى إنهم يزيدون على المليون متعاطى. ونفس الشيء بالنسبة لاقتصاديات المخدرات، حيث تتراوح التقديرات بين مليار جنيه، و ٨ مليارات دولار... فما هو حجم المشكلة على وجه الدقة؟

جـ: هذا أمر طبيعى أن تكون الأعداد تقديرية، لأن تعاطى المخدرات سلوك يتم بطريقة سرية. فلا مناص من التقديرات. وإحدى الطرق المتبعة هى التوصل إلى التقدير على أساس المضبوطات بواسطة إدارة مكافحة المخدرات، ويكون الحساب على أساس أن نسبة المضبوطات تتراوح بين ٥٪ و ٢٠٪ من إجمالى الكمية التى تم تهريبها إلى داخل البلاد فعلا. فإذا أضيف إلى ذلك حساب نصيب الفرد فى الجلسة الواحدة من جلسات التعاطى، وعدد هذه الجلسات فى الشهر أو فى السنة؛ أمكن تقدير عدد المتعاطين. وقد سئل وزير الداخلية فى سنة ١٩٦٦ عن النسبة التى تمثلها المضبوطات من إجمالى الكمية التى تم تهريبها، فقال إنها حوالى السُّدس.

س: وهل يمكن التعويل على بيانات وزارة الداخلية وإدارة مكافحة المخدرات عند وضع تقدير علمى؟

جـ: تقديرات وزارة الداخلية مبنية على أساس معلومات دقيقة من إدارة مكافحة المخدرات. وأود أن أشير هنا إلى أن الرجال العاملين فى هذه الإدارة رجال محترمون، يؤدون عملهم فى حدود الإمكانيات المتاحة لهم.

س: وهل هذا هو الأساس الأوحد؟

جـ: الأساس الثانى هو الدراسات المسحية أو الدراسات الوبائية... وهذه تكمل الصورة الأولى.

س: وماذا تقول لنا الدراسات المسحية التى أجريتموها ؟

جـ: ليست دراسة واحدة، ولكنها دراسات متوالية بدأت على نطاق واسع فى عام ١٩٧٨، فى حين أن ما سبقها من دراسات مسحية كانت على نطاق ضيق وعلى تعاطى الحشيش فقط. أما بعد سنة ١٩٧٨ فقد نزلنا إلى الميدان للقيام بعدة دراسات متوالية لعدة شرائح مختلفة؛ ولما كانت إمكانياتنا محدودة، سواء من حيث المساعدين الميدانيين أو من حيث الإنفاق المالى، فقد استقر رأينا على أن تكون هناك أولويات بحسب الدلالة الاجتماعية للقطاع الاجتماعى الذى نبدأ به.

وهكذا قررنا أن نبدأ بالشباب لأنهم يمثلون المستقبل، ولأن التصور العام هو أن ظاهرة التعاطى تتركز أساسًا فيهم. واخترنا عينات الشباب من طلبة المدارس الثانوية العامة، والمدارس الثانوية الفنية، والجامعات، ثم شباب العمال. ومرة أخرى أقول: نظرًا لمحدودية إمكانياتنا البحثية، اقتصرت عيناتنا على السحب من القاهرة الكبرى فقط. ولكن بعد ذلك، ولأن بعض إمكانياتنا وافاها النمو، فقد استطعنا بعد ذلك أن نجرى الدراسات المسحية على مستوى الجمهورية كلها. ومن ثم فبينما كانت عينة سنة ١٩٧٨ تضم ٥٥٣٠ تلميذا، شملت عينة البحث فى سنة ١٩٨٧ عدد ١٤٦٥٦ تلميذا، بنسبة ٤٪ من جمهور تلاميذ المدارس الثانوية العامة (بنين) فى القطر كله.

س: وما هى النتائج؟

جـ: تبين فى البحث الذى أجرى فى سنة ١٩٧٨ أن الذين يتعاطون الحشيش (وبعضهم يتعاطاه على سبيل التجربة، وقد يتخلى عنه بعد ذلك) يمثلون ١٠٪ من التلاميذ. ومعنى ذلك أن الصورة ليست شديدة القتامة. كما تبين أن ٥٪ فقط هم الذين جربوا أحد أنواع الحبوب الدوائية. وكذلك تبين أن نسبة مدخنى السجاير ١٨٪. أما الذين جربوا شرب الكحوليات (بما فى ذلك البيرة) فهم ٤٣٪.

س: أليست هذه أرقاما مفزعة؟ ألا تعنى أن ثلاثة أرباع الشباب مدمنون ؟

جـ: لا، لا تعنى ذلك. إن جَمْع النسب التى ذكرتها مضلّل، لأن هذه النسب المذكورة متداخلة، بمعنى أن الطالب الواحد قد يُحسب فى أكثر من فئة واحدة.

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن معظم أفراد هذه النسب تعاطوا أو شربوا أو دخنوا هذا الصنف أو ذاك على سبيل التجريب أو حب الاستطلاع، ثم أسقطوا الأمر من حسابهم تماما. أما نسبة من يواصلون التعاطى فلا تتجاوز ٢٥٪ من كل نسبة مما ذكرت.

س: وماذا عن عينة البحث الذى أُجرى فى سنة ١٩٨٧؟

جـ: تشير النتائج إلى انخفاض عن المعدلات التى كانت موجودة فى عام ١٩٧٨... وهو انخفاض متسق فى جميع مواد التعاطى.. بدءًا من الطباق (السجاير).

س: جملة اعتراضية.. هل يعتبر الطباق (السجاير) من المخدرات؟

جـ: نحن لا نتحدث عن المخدرات فقط، ولكن عن المواد المؤثرة فى الحالة النفسية أو ما نطلق عليها عموما المواد المؤثرة فى الأعصاب، ونسميها المواد النفسية.

س: فلنعد إلى دلالة البحث الأخير.. كيف تفسر هذا الانخفاض؟

جـ: هناك عاملان، أولهما ما تبين من أن التعاطى فى الريف أقل من التعاطى فى المدينة، وهذا عكس ما يُروَّج دائما، وهذا نفسه يصحح بعض المفاهيم الشائعة؛ أما العامل الثانى فهو الغلاء.

س: وما هو تفسيرك لانخفاض التعاطى فى الريف عنه فى المدينة؟

جـ: فى الريف الحياة الفردية تكاد تنعدم فيها الأسرار كما تنعدم الصبغة بالغة الخصوصية.. على عكس المدينة، فأنت فى المدينة لا تعرف جارك. أظن أن العلانية المفروضة على الشخص الريفى تمثل أحد أسباب انخفاض معدل التعاطى هناك، كما أظن أن نمط الحياة فى الريف يعدُّ عاملا ثانيا، حيث الريفى لا يحمل فى جيبه عادةً نقودًا سائلة كثيرة، وهذا يخفض من قدرته على شراء المواد المتعاطاة فى كثير من الأحيان.

س: نخشى ألا تكون طريقة العينات التى تلجئون إليها فى البحوث المسحية معبّرة تماما عن الواقع، بسبب أو لآخر، وتزداد هذه الخشية إذا وضعنا خبراتنا الشخصية فى الاعتبار. وذوو الأصول الريفية منا يرون انتشار «الغُرَز» فى القرى، بل ويرون ـ على عكس ما تستنتجونه ـ أن علاقات القرابة والمصاهرة التى تسود البنية الاجتماعية للقرى المصرية تزيل الخوف من وجود عناصر شرطية غريبة أو غير معروفة للجميع، وهذا يساعد على علانية التعاطى فى الريف. أليست الممارسة العملية فى الواقع أكثر تشابكا من الرؤية المعملية له؟

جـ: ملحوظاتكم الشخصية قد تكون صحيحة، لكنى لا أستطيع أن أُعمّمها؛ وهذا هو الفرق بين التقدير الشخصى والبحث العلمى. وبتعبير أدق: هذا هو الفرق بين العينة الممثلة للجمهور والعينة الطارئة؛ فالأولى هى التى نعتمد عليها فى بحوثنا المسحية، وإمكانيات التعميم منها لها أساس منهجى، أما العينة الطارئة التى تتجسَّد فى الملاحظات الشخصية التى أشرت إليها فإنها غير قابلة للتعميم، أى أنك لا تستطيع أن تصدر بناء عليها أحكاما عامة.

س: وماذا بالنسبة للاعتبار الثانى؟... أى كيف انعكس الغلاء على التعاطى بالسلب؟

جـ: قرش الحشيش الذى يعادل ٤,٣٢ جرام كان ثمنه فى سنة ١٩٧٨ حوالى ٨ جنيهات، وهو الآن يبلغ ثمنه حوالى ١٠٠ جنيه. هذا بالنسبة للقنب. وبالنسبة للحبوب الدوائية، قرص الماندراكس كان ثمنه ٢٥ قرشا فى عام ١٩٧٨، وقد وصل الآن إلى ٣ أو ٤ جنيهات.

س: إذا سلَّمنا بأن نسبة المتعاطين انخفضت كما أشرت منذ قليل... أفلا يكون التقليل من حجم المشكلة فى جملتها جزءاً من لعبة الأرقام إذا وضعنا فى اعتبارنا فارق السنوات العشر بين البحثين.. فقد زاد عدد السكان ١٠ ملايين نسمة على الأقل، ولهذا تكون النسبة قد انخفضت لكن العدد المطلق يكون قد ازداد؟

جـ: أنا أحذر من مخاطر التهويل، والدخول بالمشكلة فى كل بيت... وعالم

الاجتماع أو عالم النفس ليس وصيا على المجتمع، لكنه مؤتمن على كشف الحقيقة وتقديمها كما هى دون زيادة أو نقصان، ولكل شخص بعد ذلك أن يرى فيها ما يشاء من معانٍ. والنّسب التى أشرت إليها تصور حقيقة المشكلة، وتبين أن المشكلة تتناقص من حيث اتجاهها العام. ومن ثم فالتهويل الحالى لا أساس له.

س: تخوُّفنا من النسبة التى ذكرتها يكمن فى الآتى: لو أن لدينا أسرة مكونة من ٣ أفراد، وزاد عددها فردا واحدا ووصلت إلى ٤ أفراد، فمعنى نسبة الـ ١٠٪ التى ذكرتها أن الإدمان دخل كل بيت. أليس كذلك؟

جـ: هذا خطر بالنسبة لك كرب أسرة. أما بالنسبة للمشرّع الاجتماعى فانظر إلى الـ ٥٣ مليون مصرى على مستوى المجتمع، والكلام الذى يفترض أن تقوله الصحافة يجب أن يكون على مستوى المجتمع كله.

س: فى بعض الأحيان يمكننا التعامل مع الأرقام المجردة. ولكن فى أحيان أخرى يكون ذلك صعبا، لا سيما فى حالة الإدمان، لأنه يكون بمثابة بذرة قابلة للنمو والعدوى، والانتشار كمتوالية هندسية!

جـ: هذه الأرقام حقائق. ومن حقك كمواطن أو كمربّى أو كإعلامى أن تُسبغ عليها ما تشاء من قيم. لكن واجبى كباحث يؤدى له المجتمع أجره مقابل عمله أن أعطيك الأرقام كما هى.

س: هل يقتضى دورك كباحث أن تقدم لنا الأرقام فقط دون تعليق؟

جـ: مهمتى كباحث ألا أهوّل أيضا، لأن فى ذلك إضرارًا بالمجتمع. ورأيى أن انشغال نسبة كبيرة يوميا من وسائل الإعلام بقضية المخدرات يحمل قدرًا من التهويل ومن المخاطر. أما عالم الاجتماع فهو كما قلت مؤتمن على كشف الحقيقة وتقديمها، وعلى السياسى أن يأخذ هذه المعلومة كأحد مصادره، وليس المصدر الأوحد، فى اتخاذ قراره. ولذلك فإنه من الأهمية بمكان أن يقدم الباحثون صورة أمينة للواقع دون زيادة أو نقصان، دون تهويل أو تهوين. والأرقام التى ذكرتها لكم تدل على أن كثيرًا مما يقال وينشر يقع فى التهويل إلى حد كبير.

س: دعنا ننظر إلى المسألة من زاوية أخرى... إن الدول المتخلفة تعانى من المخدرات، وتفسير ذلك جزئيا هو غياب الأسلوب العلمى فى المواجهة كما قلت. فما هو إذًا تفسير انتشار المخدرات فى الدول المتقدمة رغم سيادة الأسلوب العلمى؟ وأليست مفارقة أن نقول إن المخدرات تتراجع فى مصر رغم قصور أساليبنا فى المواجهة، وتتفاقم فى الدول المتقدمة التى تحدثت عن اتباعها لأساليب علمية متقدمة؟

جـ: لا تنسَ أنه فى الوقت الذى يجرى فيه التصدى للمخدرات بالطرق العلمية، تنشط الأطراف التى يهمها نشر المخدرات ما أمكن، وعلى رأسها قوى التجارة العالمية والمحلية.. فى مقابل نشاطك تنشط هى أيضا، وفى مقابل جميع الإجراءات التى تتخذها كى تحمى نفسك يدخلون فى شبكات أكثر ترابطا وتكاملا على المستوى العالمى. فأنت لا تستطيع أن تهوّن من شأن عدوك، هذا شىء مهم، وأهمية الاعتراف بذلك يجعلنا نقول ـ كجزء من الحقيقة ـ إن الحلم بمجتمع يعيش بدون مخدرات حلم مستحيل.. هو حلم جميل حقا، لكنه حلم مثالى، كالحلم بمجتمع خالٍ من الجريمة. لذلك يجب أن تكون أحلامنا قريبة من الواقع. وما ألاحظه فيما يُكتب هذه الأيام أننا نريد أن ننتهى من مشكلة المخدرات، ولعل هذا أحد الأسباب فى تزيُّد البعض إلى حد المطالبة بإعدام المتعاطى لا التاجر فقط. الحلم الواقعى الذى يليق بنا كمواطنين ناضجين هو أن نحلم بانكماش المشكلة كمًّا وكيفا، الكم من حيث أعداد الأفراد الذين انزلقت قدمهم فى التعاطى، والكيف من حيث نوعيات المخدرات التى تظهر فى المجال.

س: السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو: لماذا اختفى الهيروين والكوكايين؟.. ولماذا عادا إلى الظهور؟

جـ: كان وراء اختفائهما عدة عوامل. منها: الأزمة الاقتصادية ومصاحباتها طوال العشرينيات، وما أصاب تجار القطن وكبار الملاك من خراب. ولذلك فإن اختفاء الهيروين والكوكايين تلازم مع أزمة ١٩٢٩/ ١٩٣٢ الاقتصادية، حيث

أصبحت السوق عاجزة لأن المسألة فى حقيقة الأمر عرض وطلب. وكان العامل الثانى فى الاختفاء إنشاء مكتب مكافحة المخدرات فى عام ١٩٢٨، وعلى رأسه **رسل باشا** من كبار ضباط البوليس فى القاهرة (بريطانى الجنسية). وقد نشر التقرير الأول الصادر عن المكتب فى سنة ١٩٢٩.

وسبق ذلك توقيع مصر على معاهدة تحريم الأفيون فى سنة ١٩٢٥، وما ترتب على ذلك من دخول مصر فى تعاون دولى لوقف التهريب وحماية الحدود. والعامل الثالث فى الاختفاء كان تضخم البطالة فى ذلك الحين، وما يعنيه من عجز المشترى لهذه الجواهر المخدرة.

س: ولماذا عاد الهيروين والكوكايين للظهور ثانية فى بداية الثمانينيات؟

جـ: تزامن هذا مع الانفتاح الاقتصادى بالشكل الذى مورس به فى البداية، وظهور شرائح اجتماعية أثرت ثراء فاحشا دون مجهود مكافئ، ودون عائد إنتاجى معقول. ويجب أن تضع فى اعتبارك أن من يتعاطى الهيروين يلزمه مصروف يومى يتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠ جنيها لإرضاء نفسه كمدمن. فمن الذى يستطيع الإنفاق على هذا «المزاج»؟ إنها شريحة من القادرين/ الانفتاحيين غالبا.

س: لكن هل تستوعب هذه الشريحة الانفتاحية كل هذا الهيروين والكوكايين الذى يقدر البعض قيمته ببضع مليارات من الجنيهات؟

جـ: لقد قدَّر البعض حجم شريحة المليونيرات لدينا بنحو ٢٥٠ ألف شخص، وأن الملياردیرات بلغ عددهم حوالى ٣٠ ملياردیرًا. وإذا صح هذا فتلك قاعدة ليست ضيقة، ويمكنها أن تستهلك كمية كبيرة نسبيا، كما أن اقتصاديات المخدرات لا تشمل الهيروين فقط أو الهيروين والكوكايين فقط، بل تمتد لتشمل الحبوب الدوائية وغيرها كالحشيش، والأفيون... إلخ. زد على ذلك ارتفاع الأسعار كما أشرت من قبل فى مجال المخدرات عموما.. وعلى أى حال، فإن الكثير من الأرقام التى تنشر فى هذا الصدد تحمل طابع المغالاة. وقد قرأت تقريرا صادرًا عن

الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء يقدّر ما ينفق على المخدرات بـ ٣٠ مليار جنيه. وأعتقد أن فى هذا تهويلا يبعد به عن الواقع.

س: بماذا تفسر هذا التهويل المستمر إذًا ؟

جـ: جزء كبير من التهويل الموجود ناتج عن ظهور الهيروين والكوكايين فى السوق المحلية. ولعلك تلاحظ أن هذه الفورة من الاهتمام بدأت فى أواخر سنة ١٩٨٥ وأوائل ١٩٨٦، وهذا التاريخ هو نفس تاريخ ظهور الهيروين والكوكايين فى السوق. فى حين لم تحدث هذه الضجة فى وجود المخدرات الأخرى قبل ذلك. هذه الصورة التى تنم عن الذعر ارتبطت بالهيروين والكوكايين تحديدا، وهو ذعر مبرَّر لأنهما أخطر من ناحية سيطرتهما على المدمن، ومن حيث ما يمكن أن يسبباه من خراب اقتصادى للفرد وأسرته، وما ينجم عن ذلك من آثار سلبية فى المجتمع.

س: هو إذًا ذُعر مبرَّر؟

جـ: نعم.. ولكن يجب أن يتم تناول المسألة بشكل علمى. وبدلا من البكاء والعويل، وبدلا من اكفهرار الجو بمزيد من الذعر، وبدلا من التسرع فى إصدار قرارات غير سليمة، وكأننا سننتهى من المشكلة بالقضاء عليها غدًا.. يجب أن نتجه إلى الفعل الرشيد القائم على التفكير والتدبير، وعلى معرفة واضحة بما يجب عمله.

س: فلنترك التشخيص ولننتقل إلى العلاج.. ما العمل؟

جـ: ليست لدىَّ روشتة جاهزة، لكن ما يهمنى هو أن أبيّن مدى التناقض بين الأقوال والأفعال. فقد سبق للقانون ١٨٢ لسنة ١٩٦٠ أن نص على إيداع المدمن فى المصحات بدلا من إيداعه السجن. والسؤال الآن: كيف خدمنا هذه المادة فى ذلك القانون؟ ما هو حجم المصحات التى لدينا، وما هو حجم التخصص بين الأطباء وبقية أعضاء الفريق العلاجى؟ ماذا أعدت الدولة، وماذا أعد المجتمع استجابةً لمقتضيات هذا التوجه؟ أستطيع أن أقرر بكل أمانة أن حجم ما أُعدَّ ضعيف جدا.

س: وما هو هذا الحجم؟

جـ: عنبر فى مستشفى الخانكة، وعنبر فى مستشفى العباسية لا يتسعان إلا لعدد محدود جدا. وإلى جانب محدودية عدد الأسرَّة فى هذين العنبرين، هناك محدودية عدد الأطباء الذين تخصصوا فى علاج الإدمان، وهناك أيضا محدودية عدد أفراد الفريق العلاجى من أخصائيين نفسيين وأخصائيين اجتماعيين.. هذا نقص خطير جدا، وهذه شهادة أقولها لوجه الحق والوطن.

س: وهل كان شيئا سليما وجود هذه الوحدات المحدودة فى أماكن ملحقة بمستشفيات للأمراض العقلية؟

جـ: هذه مسألة ثانية لا تقل خطورة عن سابقتها. فنحن نعيش فى مجتمع يخفى مريضه العقلى ويعتبره وصمة. ومن هنا نجد حجم النفور من الذهاب إلى هذه المستشفيات حجما كبيرا. كما أن مستشفيات الأمراض العقلية تعتمد فى جزء رئيسى من العلاج الذى تقدمه لمرضاها على حبوب للتنشيط أحيانا، وللتهدئة أحيانا أخرى، وللتنويم أحيانا ثالثة. فكيف أضع المدمنين فى هذا المكان الذى يمكن أن تتسرب منه هذه الحبوب إليهم؟

س: فإذا كان هذا هو حجم النشاط الحكومى، فما السبب فى تقاعس النشاط الأهلى؟

جـ: النشاط الأهلى فى مصر بوجه عام ضعيف لأسباب كثيرة، ربما كان من أهمها أنه لا يلقى التشجيع عادة.

س: ولماذا لا يلقى التشجيع؟

جـ: لعل من أسباب ذلك أن الحاكم كان يسىء الظن غالبا بالنشاط الأهلى.

س: لكننا لم نسمع عن وجود مبادرة أهلية لمكافحة الإدمان وأنها تعرضت للضرب من قِبَل الحكومة فى أى عهد!

جـ: إذا كان لديك ابن تضربه عندما يأتى بأى عمل، فإن التلقائية ستنتفى عنده حتى فى مواقف الحياة العادية؛ فالتعميم فى الجهاز العصبى للإنسان يعمل

باعتباره قانونا علميا. ومع ذلك لا يمكن أن نقول إن النشاط الأهلى قد اختفى تماما، فالواقع أنه توجد جمعية واحدة.

س: وكيف ننشّط هذا الدور الأهلى؟

جـ: لن يكون ذلك ممكنا ما دام هذا هو المناخ العام؛ فلا يمكن النهوض فى جبهات دون جبهات، وهذا أمل لن يتحقق إلا إذا أُطلقت التلقائية. والتلقائية لها ثمنها، ولها آثارها الجانبية التى يجب أن تقبلها دون أن تكون شديد الخوف من العواقب، مع وجود ضوابط طبعا، لكن المهم ألا نقاوم التلقائية.

س: هل يعتبر تقلُّص النشاط الأهلى جزءاً من تغير أوسع طرأ على الشخصية المصرية، بحيث نقول إن البعد الاجتماعى فى الشخصية المصرية تقلص بشكل ملحوظ؟

جـ: لقد حدثت تغيرات خطيرة لها تفاصيل كثيرة؛ لكن هذا التغيير من حيث مغزاه الحقيقى له عدد من الأبعاد؛ أحد هذه الأبعاد الابتعاد عن العمل الاجتماعى ما لم يكن هذا العمل الاجتماعى مرتبطا بفائدة أنانية مباشرة. حدثت تغيرات أيضا فى الاتجاه إلى مزيد من التفكيك الاجتماعى.. تفكيك العلاقات الاجتماعية.. وراء هذا التفكيك مضمون نفسى يتمثل فى قدر من سوء الظن بالآخر، وقدر من الخوف منه. وثمة بُعد ثالث يتمثل فى التغيرات التى نشير إليها، ويمكن أن نسمى هذا البُعد «دعم الجماعية الغوغائية». ثم بُعد رابع يتلخص فى انحسار معظم المواقف والمجالات التى تؤدى إلى ـ أو تساعد على ـ قيام حوار بين طرفين، ومن ثم أصبحت المسألة على النحو التالى: أنطق.. فإذا اختلفت معى توقف الحوار؛ إذا اختلفنا ونحن أندادا أصبحنا أعداء؛ وإذا اختلفنا وأنت قوى أضعفتُ نفسى أمامك، فإذا اختلفنا وأنت الضّعيف انقلب حديثى إلى أمر أو ما يشبه الأمر. وفى جميع الأحوال ينقطع الحوار.

س: فلنعد إلى تعاطى المخدرات... ما هو فى رأيك السبب الذى يشجع على التعاطى؟

جـ: المسألة تتلخص فى أنه فى ظل ظروف معينة يكتسب الإنسان عادات

معينة... الإنسان يحتاج إلى أن ينتقل من حالة التوتر إلى حالة الاسترخاء... والتوتر يصحب العمل، والاسترخاء يصحب الراحة.. وتحت ظروف معينة لا يطلب الشخص الراحة بطريقة طبيعية، ولكن بمساعدة عنصر كيميائى... كيف يقع الإنسان فى هذا؟ ظروف معينة ليست كلها ناتجة عن طبيعة شريرة. والبحوث المتاحة لنا تقول: إن ما لا يقل عن ٨٥٪ من حالات التعاطى مدفوعة أصلا بتأثير الغير ما بين الإغراء والإرغام، و ١٥٪ فقط هم الذين أخذوا موقفا نشطا فاعلا فجرّبوا واستمروا. وهذا صحيح فى كل من البلاد المتقدمة والنامية على حد سواء.

س: إذاً فالمتعاطى ضحية؟

جـ: هذا صحيح. لهذا لا يمكن تجريم المتعاطى على طول الخط... والأغلبية تقاوم، إلا أن المقاومة لها عناصر كثيرة تدخل فى مجال تعليل الفعل الإنسانى... لكن إذا كان المتعاطى ضحية فإنه عندما تصدر عنه سلوكيات بعينها نبدأ الحديث عن العقاب؛ فمثلا: المدمن الذى يضرب زوجته ليأخذ منها نقودا ليشترى بها المخدر رغم مرض ابنه، فإننا نجد أنفسنا إزاء هذه الحالة أقرب إلى التفكير فى عقابه، ربما أدبيا فقط، وربما أدبيا وماديا، لأننا لا نراه على أنه مريض ١٠٠٪.. ليس كمريض الحمى مثلا.. ولكنى أراه على أنه مريض إلى حد ما، (بسبب الفقدان الجزئى للإرادة)، لذلك يجب أن أعطيه فرصة للعلاج.. وفى مرحلة تالية يمكننا أن ندخل مرحلة التدبير للعقاب. لكن لابد أن تكون الفرصة التى يعطيها المجتمع لعلاج المتعاطى فرصة حقيقية، وذلك من خلال تطبيق برامج مختارة... هذا علما بأن توفير إجراءات الوقاية أجدى.

س: هل هناك سن معينة تكون احتمالات التعاطى عندها أكبر مما هى عند غيرها؟

جـ: السن الحرجة حسب بحوثنا الميدانية هى السن من ١٢ إلى ١٦ سنة. فإذا وصل الشاب إلى سن ٢٢ سنة فقد بدأ مرحلة الأمان، فإذا بلغ الثلاثين من العمر دون أن يتعاطى فقلما يُقبل على التعاطى بعد ذلك.

الحوار الخامس

وقد نشر فى دورية «علم النفس فى العالم»
فى سنة ١٩٩٧
World Psychology, 3/ 1&2, 13-27

مسائل تطرق إليها هذا الحوار

- التحولات الكبرى فى اهتماماتى الأكاديمية.
- كيفية التغلب على الصعوبات
التى اعترضت طريق الاستمرار فى بحوث التعاطى.
- الخصال التى لابد من توفرها فى تلاميذى بالدراسات العليا.
- جائزة الدولة التقديرية.
- مدى اهتمامى بعلماء العرب القدامى.
- صداقة مع أيزنك.
- الهوية المزدوجة بين عضوية الحضارة المصرية
وعضوية الحضارة الإنسانية العامة.
- علم النفس العيادى فى مصر.
- علم النفس فى العالم.. التوجه الرئيسى.

الحـوار الخامـس

س: سبق لك أن أشرت إلى أشد التغيرات الكبرى تبكيراً فى حياتك الأكاديمية؛ وهو الانتقال من دراسة الفلسفة إلى دراسة علم النفس.. كيف حدث هذا التغير؟ ولماذا ؟

جـ: قلتُ فى حوار سابق (نشر فى الدورية البريطانية للإدمان، فى سنة ١٩٨٨) إن ميزتين هما اللتان بهرتانى فيما يتعلق بالفلسفة: (١) المطلب الذى لا ينقطع فى السبيل إلى إقامة مشهد شامل للعالم، و (٢) المحاولة المستمرة لتنمية وشحذ اتجاه نقدى نحو منظومات الفكر القائمة. ثم تحركت نحو التخصص فى فلسفة الجمال، وهذه النقلة تبعتها إزاحة عقلية محدودة نحو دراسة الإبداع فى الفنون، وهكذا وجدتنى منغمسًا فى البحث النفسى (سويف، ١٩٥٠). فى الوقت نفسه قوبلت فى هذه الإزاحة بتشجيع غاية فى الكرم من أستاذ علم النفس (وكان أستاذا فى قسم الفلسفة حينَ ذاك) على الاستمرار فى هذا الطريق.

والآن، عندما أنظر إلى الوراء وأتساءل: لماذا تحولتُ تماما إلى علم النفس بدلا من أن أواصل النمو كمتخصص فى فلسفة الجمال؟.. أجد أن التناول الإمبيريقى الذى يستدعيه البحث السيكولوجى هو الذى قاد تحوُّلى. فمع أننى بقيت على انبهارى بالجسارة التى تبدو فى التأملات الفلسفية، فقد أصبحت على يقين بأن كفة البرهان الإمبيريقى هى الأرجح.

س : وفى الأربعينيات المتأخرة (سنة ١٩٤٨ وما بعدها) بدأتَ تخصصك فى علم النفس الاجتماعى، ولكنك تحولت فى الخمسينيات المتأخرة تحولا كبيرا إلى المباحث الإكلينيكية، وبعد ذلك قدَّمت نفسك كأخصائى عيادى.. فهل لك أن تعلق على هذا التغير فى بؤرة اهتماماتك؟

جـ: حدث هذا كله بسلاسة شديدة وكأنه المجرى الطبيعى للارتقاء. ففى ثنايا دراستى للإبداع الفنى (من ١٩٤٥-١٩٤٨) انتهيت إلى الاستنتاج التالى عندما حاولت أن ألخص الدلالة النفسية الاجتماعية للعمل الفنى: «إن العمل الفنى رسالة، موجَّهة من «أنا» الفنان إلى آخر معمَّم، يحاول (الأنا) عن طريقه استعادة التكامل النفسى الاجتماعى». وكان طبيعيا عندئذ أن تتسارع إلى ذهنى عدة تساؤلات، وكانت هذه التساؤلات تدور غالبا حول أساسيات التكامل الاجتماعى. ومن هنا كان من اليسير علىَّ أن أكامل بين هذه التساؤلات فى صورة مشكلة بحثية لم تلبث أن أفضت بى إلى علم النفس الاجتماعى بمعناه الدقيق. فى ذلك الوقت (١٩٤٩-١٩٥٤) أجريتُ بحوثى للدكتوراه حول أسس التكامل النفسى الاجتماعى، مع اهتمام خاص بارتقاء الاستجابات الاجتماعية فى الطفولة المبكرة والمتأخرة (سويف ١٩٥٤).

أما عن الكيفية التى خطوت بها من علم النفس الاجتماعى إلى علم النفس العيادى، فلهذا التحول قصته الخاصة. ذلك أننى فى سنة ١٩٥٤ اقتنعت بأنه يلزمنى أن أعرف المزيد عن قياس الاتجاهات وأساليب البحث فى مجال الشخصية، عندئذ كتبت إلى الأستاذ **هانز أيزنك** أطلب النصيحة. وسرعان ما تلقيت ردًّا منه يرحب بى أن أقيم بين العاملين معه فى معهد الطب النفسى فى جامعة لندن لمدة عام حتى أتمكن من دراسة ما أطلبه. وقد اعتبرت هذا الرأى بمثابة نصيحة حكيمة.. بل وكريمة. وفى أثناء وجودى هناك ومشاركتى فى البحوث الجارية فى المعهد، التقيت مصادفة مع الأستاذ **شابيرو M.B.Shpiro** وعرفت منه عَرَضًا بوجود دبلوم للتخصص فى علم النفس العيادى، وقد تم إنشاؤه حديثا. وشيئا فشيئا عرفت أقدارًا متزايدة من المعلومات عن محتوى البرامج التى تدرس فيه، وهو ما دفعنى إلى أن أقرر الانتظام فى دراسته. وعندما عدت إلى مصر (فى سبتمبر ١٩٥٧) وجدت الزملاء مشتبكين فى مناقشات حامية مع الأطباء النفسيين حول دور الأخصائى النفسى فى تقديم الخدمة النفسية

العيادية، وعندئذ رأيت أنه قد يكون من المفيد أن أقدم لهم معلومات عن النموذج الذى درسته فى لندن. وقدمت فعلا هذا النموذج، وكان المردود الذى تلقيته على ذلك مشجعا، خاصة ما سمعته من الأطباء النفسيين. ولم يكن هذا المردود منحصراً فى ذلك النوع الذى تتلقاه لحظيا عند الانتهاء من كلمة تلقيها أو مناقشة تشارك فيها وينتهى الأمر عند ذلك؛ بل كان استجابة إيجابية متصلة لا تفتأ تنمو بصورة لها معنى.. فقد تلقيت بعد ذلك دعوات متوالية لإلقاء محاضرات يؤمها الأطباء، وطلبات للمشاركة فى لجان امتحان تعقد لخريجى دراسات الطب النفسى العصبى، ودعوة لقبول منصب المستشار الدائم لوزارة الصحة المصرية لإرساء قواعد خدمة نفسية عيادية تحت مظلة وزارة الصحة.. إلخ. وفى هذا الجو وجدتنى أزداد انغماساً فى القيام بمهام عيادية تشمل التعليم والبحث والممارسة.. وهكذا كان علىَّ أن أستثمر الكثير من الوقت والطاقة فى العمل العيادى على حساب اهتمامى بعلم النفس الاجتماعى. ومع ذلك فقد استغرق الأمر وقتا ليس بالقصير حتى تبيَّن لى أنه لابد من اتخاذ قرار فى هذا الشأن، غير أننى لم أستطع قَطّ أن أسقط من حسابى سابق تكريسى للانغماس فى علم النفس الاجتماعى (سويف ١٩٥١، و ١٩٥٤، و١٩٦٣) إذ كان من الواضح لى دائما أننى إذا أردت أن أتقن عملى العيادى فعلىَّ أن أحتفظ بقدر من الاهتمام بعلم النفس الاجتماعى، كما أنه بدون علم النفس الاجتماعى لن أتمكن من الخروج بتصورات لها معنى تساعد على فهم ما أواصل الكشف عنه من حقائق فى ثنايا بحوثى المستمرة فى وبائيات تعاطى المخدرات. (Soueif 1972, 1973, 1976).

س: ظللتَ ترأس لجنة بحوث تعاطى القنب منذ منتصف سنة ١٩٦٦ حتى نهاية سنة ١٩٧٤، وفى منتصف سنة ١٩٧٥ تحولت هذه اللجنة لتصبح «البرنامج الدائم لبحوث تعاطى المخدرات»، وهذه لا تزال تعمل تحت رئاستك. وقد أصبحت هذه الجهود مصدر إلهام لكثير من الباحثين النفسيين المصريين والعرب من العاملين فى حقل الاعتماد على المخدرات.. فكيف استطعتَ أن تستمر على

هذا النحو؟ من المؤكد أنك ووجهت بكثير من الصعاب والعقبات. كيف تغلبت عليها؟ وما هى الدروس التى يمكنك أن تقدمها على ضوء ذلك إلى الأجيال القادمة من المشتغلين بعلم النفس؟

جـ: منذ بدأتُ مسيرتى الأكاديمية المنتجة، كمُحاضر مبتدئ، كنت ألاحظ دائما أن أعدادا كبيرة من الشباب كانوا يعبّرون، صراحة أو ضمنًا، عن رغبة فى أن يوفقوا إلى قيادة أكاديمية مؤثرة. وعندما رُقيتُ فى عام ١٩٦٢ إلى وظيفة أستاذ مساعد وأصبح لى حق الإشراف على خريجين يعملون للحصول على درجة الماجستير والدكتوراه، جاءنى عدد كبير من هؤلاء يطلبون العمل معى فى دراساتهم العليا، ووجدتُ فى ذلك رصيدا إيجابيا كنقطة بداية. ويبدو لى الآن أن الطريقة التى أدرت بها دفة العلاقة بينى وبينهم التقت مع ما كانوا يشعرون بالحاجة إليه وما كانوا يتوقعونه. وفى هذا الشأن كان هناك مكونان رئيسيان للأساس الذى أقمت عليه سياستى: تخليق بنيةٍ محددة المعالم لهذه العلاقة، (مثال ذلك: تحديد مواعيد ثابتة لمقابلتهم، وإعطاؤهم واجبات منزلية محددة، والنظر فى الكيفية التى أدوا بها هذه الواجبات ومدى صحتها. . . إلخ)، وتقديم العون لهم (العون الأكاديمى أساسا، وقد يمتد هذا العون ليشمل جوانب أخرى فى حياة الطالب). وعندما أصبحت مشرفا على بحوث تعاطى القنب، رأيت أنه قد يكون من الصواب أن أضم عددا ممن يعملون تحت إشرافى للحصول على الدكتوراه، أى أن أضمهم كأعضاء فى فريق البحث الذى كوّنته، على أساس أن ذلك يمكن أن يتيح لهم الفرصة لاكتساب أنواع من المهارات البحثية مما قد لا يتاح لهم فى أى مجال آخر. ذلك أن طالب الدكتوراه يعمل عادة فى شبه عزلة. أما داخل الفريق البحثى فسوف يدرَّب على التعاون الوثيق المستمر داخل سياق مشروع بحثى كبير نسبيا. أضف إلى ذلك أنهم (أى هؤلاء الطلاب) سوف يحصلون من خلال هذه العضوية فى الفريق على أجر مادى هم غالبا فى حاجة إليه. هذا بالنسبة لهم. أما بالنسبة لى فقد رأيت المحاولة كلها أقرب إلى أن تكون تجربة اجتماعية مشحونة بالآمال والمخاوف، فلم أكن متأكدا من أنها

سوف تنجح، ومع ذلك لم أكن أستطيع أن أرى لماذا تفشل. غير أنى كنت مصمما، فى أعماقى، على أن أعطيها أقوى ما أستطيع من دفع لكى يقدّر لها النجاح.

والآن، وبعد مضى أكثر من ثلاثين سنة على هذه البداية، أجدنى فى موضع يسمح لى بتقييم التجربة، فبناء الفريق كما صمّمته أثبت أنه كان صالحا لتربية الخريجين كطلاب بحث، ومن ثم لتزويد مصر بمجموعة من العلماء الأكفاء. وقد كان من بين قواعد إدارتى الفريق قاعدة تقول بالامتناع عن إحداث تغييرات فى عضويته.. لا بالإضافة ولا بالاستبعاد. وقد طبّقت هذه القاعدة تماما لمدة تقرب من العشر سنوات. ولكنى بعد ذلك لم أجد بُدًّا من أن أتقبل، بحذر شديد، إدخال بعض التغيير فى العضوية فى أقل الحدود الممكنة. ومن ثم فقد أدخلنا هذا النوع من التغييرات بضع مرات فى السنوات العشرين التالية. ثم إذا بتصوّرنا للفريق يتحول تدريجيا إلى ما يشبه القالب (المستقر على نمط من العلاقات بداخله) المستقل عن مضمونه، وتلك حقيقة تيسر لنا أن نتقبلها من خلال التاريخ المعترف به على نطاق واسع للفريق، وانبثاق رؤية وتقاليد مصممة على مقاسه أسهم فى صنعها تاريخه الخاص. والآن أرى من الإنصاف أن نشهد بأن تجربتنا على امتداد هذه المدة التى تزيد على ثلاثين سنة أثبتت أنها كانت ناجحة. فقد أوفت، ولا تزال توفى، بمقتضيات مهمتها الرئيسية وهى إنتاج أقدار من المعرفة الإمبيريقية المتعلقة بتعاطى المخدرات. ثم إنها ـ بالإضافة إلى ذلك ـ تقدم خدمة ثانوية بما تستحدثه من تدريب أعداد من الخريجين على التعاون الخلاق المتواصل لإجراء البحوث كبيرة الحجم.

ومع ذلك، فلم تكن مهمة تشغيل هذا الفريق على امتداد ما يزيد على ثلاثين عاما بالمهمة السهلة، لكنها فى الوقت نفسه لم تكن تشعرنى بالمشقة. صحيح أننى مررت بلحظات ملؤها التوتر والقلق. مثال ذلك: عندما نكون بصدد البدء فى بحث ميدانى، وهو ما يعنى الحصول على أنواع منوعة من الإذن تحتاج أن تؤخذ من سلطات متعددة، أو عندما نكون بصدد تجميع قدر كبير من البيانات وإعدادها

للمعالجة الكومبيوترية بكل ما يكتنف ذلك من صعوبات فى بلد نامٍ، أو عندما نكون بصدد كتابة تقارير مفصَّلة وعلينا أن نقرر ما إذا كنا سنكتب هذه التقارير بالعربية أم بالإنجليزية، مع حساب ما لكل من البديلين وما عليه. ومع ذلك فقد كانت لدينا فى مقابل لحظات التوتر والقلق هذه لحظات أخرى ترجحها وتتغلب عليها بما تقدمه لنا من الرضا والسرور: عندما نجد العمل أمامنا منشورا، وعندما نجد باحثين آخرين يذكرونه استنادًا إلى ما يوحى به، وعندما نجد مجهوداتنا البحثية وقد اعترف بها باحثون من أئمة الميدان من أمثال الأستاذ **هاردن جونز H.Jones** من بيركلى (كاليفورنيا)، أو **جابرييل نحاس G.Nahas** من جامعة كولومبيا (نيويورك).. وعندما تجد الاعتراف بوجه خاص لدى مؤسسات رفيعة المكانة مثل منظمة الصحة العالمية؛ فمما لاريب فيه أن هذه الأحداث كانت بالنسبة لنا بمثابة مكافآت تعيننا على مواصلة العمل.

ومع ذلك لا يمكن القول بأن الحساب الختامى للصعوبات والمكافآت يقوم كسبب كاف لتفسير استمرارنا فى العمل لمدة طويلة، فنوع القيادة التى تلزم لاستمرار التقدم بالعمل مسألة بالغة الأهمية؛ فهناك أولا حرصى على أن أظل دائمًا أراقب نفسى (وأنا، على سبيل المثال، أؤدى دورى البحثى) وأعود بإدخال التعديل تلو التعديل على تصرفاتى كلما دعت الضرورة. وهناك ثانيا أننى وضعت نفسى وكل ما هو تحت يدى رهنا بمطالب العمل للتغلب على جميع العقبات التى قد تنشأ على غير توقُّع. وهناك ثالثا أننى جعلتها سياسة ثابتة أن يبقى الأعضاء العاملون معى معرَّضين معظم الوقت لما يمكن تسميته بالقيم السليمة التى يقتضيها العمل، وذلك درءًا للآثار السيئة التى قد تنتاب علاقات العمل (كالتسيب الذى يُنظر إليه كأنه لون من التسامح، وكالمحسوبية المبنية على الشللية أو علاقات القرابة). وقد جَهدتُ دائما أن أجمع بين المودَّة والحسم. وكانت المودَّة فى نظرى هى أن يمضى تقاربى نحو العاملين معى على أساس روح الأبوَّة لا على أساس النِّدِّيَّة. وقد تبدو هذه النقطة بالنسبة للقارئ الغربى مثيرة للجدل، ولكن بالنسبة لنا فى مصر فهى أمر طبيعى ومتوقَّع لأن أساليب الحياة التقليدية لا تزال هى

السائدة. فالتوجه المشبَّع بروح الأبوة هو الشرط اللازم لضمان الاستعداد الدائم للرعاية من ناحية، وللنقد الآخذ بيد الناشئ من ناحية أخرى.

هذا.. وقد كانت هناك صعوبات مغايرة تنشأ أمامنا من حين لآخر، لكنها كانت صعوبات يغلب عليها التهافت، وكنت فى معظم الأحيان أكتفى بأن أنحيها جانبا أو أتجاهلها. كما كنت أشعر أحيانا بأن ما قد يصدر عنى من رد فعل ربما ترتبت عليه أضرار بالغة. ولما كان هذا من العوامل التى يمكن التغلب عليها، لذلك بقيت غالبية المشكلات دون المستوى المهدِّد. وفى هذا الصدد، فإننى مقتنع بأنه كلما سيطر على الذهن التوجه البحثى الموضوعى، تضاءلت الاحتمالات بأن تواجهك العقبات. ولا أعنى بهذا القول إنه قاعدة تصدق حيثما جرى تطبيقها، فكل ما فى الأمر أن هذا درس استخلصته من واقع خبرتى الشخصية، وربما كان للواقع الحضارى فى مصر دوره فى مصداقية هذه القاعدة؛ فالشخص الذى لديه اهتمامات أو طموحات بحثية حقا إذا وجد فى بلد نام، فإنه عادة لا يستثير لدى الآخرين أنواع الغيرة أو المنافسة ذات البطانة العدوانية. إن التحدى الحقيقى الذى يواجهه مثل هذا الشخص هنا هو كيف يواصل العمل البحثى لسنوات طوال فى جو أقرب إلى الفراغ الفكرى المصحوب بتشكيلة عريضة من عوامل التشتيت، ويتضخم هذا التحدى أضعافا مضاعفة إذا أراد مثل هذا الشخص أن ينشّئ مجموعة من صغار الزملاء وقد شحذ نفوسهم لكى تكون حساسة بما فيه الكفاية للقيم المقرونة بالإنجاز البحثى. (Soueif et al. 1980, p. 1-6).

س: بما أننى واحد ممن سبق لهم التتلمذ عليك، فقد كنتُ على علم بمدى صرامتك فى اختيار الطلاب الذين تسمح لهم بمواصلة دراستهم العليا معك. فما هى الصفات أو الخصال التى كنتَ تتطلبها فى هؤلاء الطلاب؟

جـ: بادئ ذى بدء هناك عملية انتخاب ذاتى تتم تلقائيًّا. يتقدم إليك عدد من الطلاب يعبّرون (رسميا أو بصورة غير رسمية) عن رغبتهم فى الدراسة معك، والغالب أن نسبة من الشباب المحيطين بك كانوا يستشعرون نوعا من

التناغم العقلى مع ما استطاعوا أن يدركوه على أنه جزء من صورتك الاجتماعية الأكاديمية. وفى الوقت نفسه، لا شك أن بعضهم قد انجذبوا إليك لاعتبارات لا علاقة لها بكفاءتك الأكاديمية. وقد اعتدتُ من جانبى أن أعطى وزنا أكبر لعوامل الخُلُق والطباع على حساب مظاهر العقل أو الفكر، فلا يعنينى كثيرا أن يكون تلامذتى مُفرِطين فى معاملات ذكائهم.. وإذا اقترنت هذه بالخصال التى أنشدها فى الخلق والشخصية فهذا خير وبركة. ولكننى أرتضى أن يكون تلاميذى ذوى معاملات ذكاء معقولة فى ارتفاعها إذا اقترنت هذه بما أعتبره خصالا ثمينة فى الشخصية؛ مثال ذلك أن يكونوا ممن يعتمد عليهم، يتحلَّون بدماثة الخلق، مع شىء من الحياء الاجتماعى، والطموحات المنضبطة. ولا جدال فى أننى أرحب كذلك ببعض الخصال التى تقع بين العقل والمزاج؛ مثال ذلك حب الاستطلاع أو الحرص على التعلم، والحاجة إلى الإنجاز البحثى، والشعور بالاحترام العميق للسيرة المرتبطة بالبحث. وأخيرا وليس آخرا أرحّب بقدر من الشعور بالبنوَّة نحو الأستاذ (أو الشيخ).. قدر يكفى للتكامل مع توجُّه الأبوة الذى يحمله الأستاذ.

س: لماذا رفضت قبول العديد من المناصب الحكومية الرفيعة التى عرضت عليك؟

جـ: كان العامل الحاسم فى ذلك هو صورة الذات كما أحملها. فلم يحدث قَطّ أن تخيلت نفسى إلا كرجل أكاديمى، وفى رعايتى هذه الصورة كانت طموحاتى تدور دائما حول الإنجازات الأكاديمية. ومع ذلك فلم يحدث قَطّ أن تعارض نزوعى هذا أو وقف حجر عثرة فى وجه استعدادى لتقديم معرفتى وخبرتى عندما طُلبت لأغراض عملية. وعلى هذا النحو أفهم دور العالم/ الممارس (Barlow et al. 1984).

س: ولماذا اعتذرت عن كل الدعوات التى وجّهت إليك بتولى مناصب تعليمية فى جامعات الدول العربية ؟

جـ: أولا وقبل كل شىء هناك تنافر بين مزاجى وكثرة الترحال. زد على ذلك

أن مطلب الإنجاز من خلال البحوث طويلة الأجل يقتضى الاستقرار فى مكان واحد (البلد نفسه، وربما المؤسسة نفسها). ثم هناك سبب ثالث يتلخص فى أننى منذ بدأتْ مسيرتى التعليمية فى جامعة القاهرة، وجدتُنى مهتما بالمشكلات العملية الخاصة بتحسين طرق تعليم العلوم النفسية فى قسمى (وكان قسم الدراسات الفلسفية فى ذلك الوقت المبكر). لهذه العوامل الثلاثة كان صعبا علىّ دائما أن أبقى بعيدا عن القسم لفترات طويلة. وفوق هذا وذاك فلم يحدث قَطّ أن كانت للمال الأولوية فى حياتى.

س: فى سنة ١٩٩٠ مُنِحْتَ جائزة الدولة التقديرية للعلوم الاجتماعية.. فهل من تعليق؟

جـ: كانت هذه مفاجأة لى، حتى أن أول رد فعل صدر عنى كان التساؤل: كيف حدث ذلك؟ وبعد ذلك غمرنى السرور. فليس لدىّ أى خداع فيما يتعلق بهذه الجوائز، لأنها تنطوى دائما على قدر من التحركات السياسية، ولكن ذلك لا يعنى بالضرورة أنك لا بد وأن تؤدى بنفسك ما تقتضيه اللعبة السياسية (وإن كان هذا يحدث فى كثير من الحالات).. فقد يتقدم غيرك ليؤدى المطلوب نيابةً عنك. على أية حال ـ شئت أم أبيت ـ فهذه واحدة من حقائق الحياة الاجتماعية. النقطة الهامة فى هذا الصدد هى الأساس الذى يقام عليه الأداء: هل هو نوع من الموضوعية أم هو نوع من المحسوبية؟

س: كتبت فى الستينيات عن عدد من العلماء المسلمين الذين عاشوا فى العصور الوسطى، كالفارابى وابن خلدون، ممن ساهموا فى التاريخ القديم للفكر السيكولوجى. فلماذا كتبت عنهم؟ وهل لا تزال مهتمًّا بالكتابة عنهم؟

جـ: كنت فى الستينيات أخطط لكتابة مقدمة تاريخية لمرجع فى علم النفس الاجتماعى، وتبين لى عندئذ أنه كانت هناك ثغرات متعددة فى أدبيات التخصص المعروفة للمتخصصين فى العلوم النفسية. فمثلا، كلنا نعرف أن الفلسفة اليونانية زاخرة بالأفكار السيكولوجية القيّمة. وقد جرت العادة على أن يضرب المثل على ذلك بكتابات **أفلاطون** فى محاورتى «أيون» و «الجمهورية». ولكن فى حدود

علمى لم يُكتب شيء فى أدبيات علم النفس الاجتماعى عن نظرية **أفلاطون** فى اللغة كما أوردها فى محاورة «أقرطايلوس»، وبالمثل لم أجد أية إشارة إلى كتاب **أرسطو** فى «الخطابة». ومع ذلك فهذا الكتاب الأخير ملىء بالتأملات شديدة الخصوبة التى تتعلق بموضوعات هامة فى علم النفس الاجتماعى، منها على سبيل المثال: طبيعة التواصل، والقيادة، والتعبيرات الوجدانية كما تتشكل من خلال الظروف الاجتماعية المباشرة، والشروط الاجتماعية التى تؤثر فى تقدير الذات. . .إلخ. من خلال هذا التوجه رأيت أنه يلزمنى أن أقول شيئا عن إسهامات المفكرين الإسلاميين الذين عاشوا فى العصور الوسطى، وقد اخترت لذلك شخصيتين بارزتين: **الفارابى** (٨٧٣-٩٥١م)، **وابن خلدون** (١٣٣٩-١٤٠٦م). وقد شمل تقديمى إياهما عينة محدودة من الموضوعات التى عالجها كل منهما (سويف ١٩٦٣). فمن كتاب **الفارابى** «آراء أهل المدينة الفاضلة» اخترت ثلاثة موضوعات هى: الأسس السيكولوجية الفطرية للحياة الاجتماعية، وشخصية القائد، والعوامل المؤثرة فى تماسك الجماعة. أما عن **ابن خلدون** فهو معروف بكتابه «المقدمة»، وقد قصد به أن يكون معالجة منهجية اجتماعية (فى أساسها) للكيفية التى يجب أن يُكتب التاريخ بها. وقد اخترت أن أعرض لأفكاره حول سيكولوجية شعوب الأرض، وموضوع العلاقة بين خصال الشخصية واحتمالات النجاح فى المهن المختلفة.

جدير بالذكر هنا أنه لا تزال توجد كثرة من الكتابات السيكولوجية، فى صورة مخطوطات قديمة كتبها كتاب إسلاميون فى العصور الوسطى تستحق أن تتناولها الدراسات الجادة، وتعلق عليها، ثم تنشر على أيدى متخصصين من علماء النفس الأكفاء. وفى رأيى أنه بالنسبة للزملاء المصريين والعرب المهتمين بتاريخ علم النفس، فإن هذه الثروة من المعلومات التى لم تُستكشف بعد تقدم فرصة طيبة لسد ثغرات بالغة الخطر لا تزال تعانى منها جمهرة المراجع التاريخية الغربية (مثال ذلك: Brett 1921, Murphy 1938). ولا أزال أقع من حين لآخر على كتابات عربية دُوِّنَت فى العصور الوسطى تتعلق بموضوعات سيكولوجية هامة. وقد

حدث فى سنة ١٩٧٠، وبينما كنت أكتب عن العوامل النفسية الاجتماعية المؤثرة فى تعاطى القنب، أن عثرت على كتابات عربية تتصل بالموضوع (Soueif 1972). وأنا أشير هنا إلى مدوَّنة الفارماكوبيا العربية الشاملة التى ترجع إلى القرن السابع عشر، والتى كتبها **داود بن عمر الأنطاكى**، والمعروفة باسم «تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب»، وقد عالج فها كاتبها الآثار النفسية المترتبة على تعاطى القنَّب. وقد أشرت فى كتاب حديث لى إلى «التذكرة» نفسها وهى تعالج الآثار المترتبة على تعاطى الأفيون والقات بالإضافة إلى القنَّب (سويف ١٩٩٦). من ذلك كله ترى أننى كنت ـ ولا زلت ـ مهتما بتلك الكتابات الإسلامية القديمة، غير أننى أقصر اهتمامى فى هذا الصدد على إبداء إشارات هنا وهناك قاصدا منها أن ألفت نظر الزملاء المصريين والعرب إلى هذه الكنوز القيّمة. وسيأتى يوم، غالبا، يأخذ البعض فيه هذه الإشارات مأخذ الجد، فيتعلمون المهارات الأكاديمية المطلوبة للعمل فى هذا المجال، ثم يتقدمون للدراسة الجادة والنشر الملائم لهذه المخطوطات.

س: ينظر زملاؤك وتلاميذك إلى علاقاتك الأكاديمية، وإلى الصداقة التى ربطت بينك من ناحية والأستاذ هانز أيزنك من ناحية أخرى، بكثير من الإعجاب والاحترام. فهلاَّ حدثتنا عن بداية هذه العلاقة الموقَّرة، والكيفية التى تطورت بها؟

جـ: تبدأ قصة هذه العلاقة فى صيف سنة ١٩٥٥ عندما قصدتُ إلى القسم الذى يشرف عليه فى معهد الطب النفسى بجامعة لندن لأدرس بعض الأساليب والتقنيات المتقدمة لبحوث ما بعد مستوى الدكتوراه، فقد كانت إقامتى هذه مثمرة عقليا ومُشبعة وجدانيا، تعلمت فى أثنائها أكثر مما تطلعتُ إلى تعلُّمه. وفى الوقت نفسه فزت بعدة صداقات ممتعة، وفى مقدمة هذه الصداقات كانت صداقتى **بهانز أيزنك**. فالطريقة التى استقبلنى بها غذَّت طموحاتى الأكاديمية، وقدَّمت الرعاية لشخصى على امتداد العامين اللذين أقمتهما بصورة رائعة. وقد اشتملت قائمة صداقاتى على أسماء أخرى، أذكر من بينها: **سيريل فرانكس C.Francks**

(وهو الآن أستاذ فى جامعة رتجرز بالولايات المتحدة الأمريكية)، **وچاجانات براساد داس J.P. Das** (وهو الآن فى ألبرتا بادمونتون/ كندا)، **وهانز برنجلمان H.Brengelmann** (فى معهد **ماكس بلانك** للطب النفسى فى ميونيخ بألمانيا)، والمرحوم **يوهان بارندرخت J.T.Barendregt** (وكان فى جامعة أمستردام بهولندة). التقينا جميعا وانعقدت صداقاتنا بعضنا ببعض فى القسم الذى يشرف عليه **أيزنك**، والذى كان أقرب إلى الأكاديمية العالمية. وعندما عُدت إلى مصر فى سبتمبر سنة ١٩٥٧ كنت مصمما على أن أقدم إلى تلاميذى وزملائى ما تعلمتُ فى لندن. وعندما تبينتُ لى قيمة ما أديته نحو قسمى وكليتى، عقدت النية على أن أعود فأقيم إقامة طويلة للمرة الثانية فى معهد الطب النفسى بلندن. وكان **هانز أيزنك** كريما، فقد رحب بى فى زيارتى الثانية التى استمرت من أغسطس سنة ١٩٦٣ إلى سبتمبر سنة ١٩٦٤. وفى هذه المرة تعلمتُ المزيد، لا فى علم النفس فحسب، ولكن فيما يتعلق بعدد من المهارات الأكاديمية التى تمس الحاجة إليها.. من هذا القبيل: كيف أؤدى دورى كأستاذ جامعى يجمع بين الكفاءة والكرامة، وكيف أجمع بين سعة الأفق والكفاءة التقنية، وكيف أُبقى إحدى قدمىَّ داخل حضارتى على حين أتجول بالقدم الأخرى فى الحضارة الغربية؟ وقد دعمت زيارتى الثانية هذه صداقتنا، ومنذ ذلك الوقت أصبحت إحدى عاداتى أن أقوم بزيارة **أيزنك** فى قسمه كلما وجدتنى فى لندن. وأصبحت هذه العادة مرضية لى كل الرضا، لأننى أصبحت من خلالها على صلة بكل ما جرى لديهم فيما بين زيارتى السابقة وزيارتى اللاحقة، كما أننى حظيت بنوع من تجديد الشباب لعلاقة رفيعة القيمة.

س: فى العام ١٩٨٨ قرأتُ باهتمام بالغ الحوار الذى أُجرى معك على صفحات «الدورية البريطانية للإدمان». وقد لاحظتُ، كما لاحظ غيرى، أنك بقيت على امتداد أكثر من ٣٥ عاما تحمل ما يمكن أن نسميه نوعًا من «الهوية المزدوجة»؛ فقد ظللتَ تسهم فى علم النفس بوجوده العالمى، وفى الوقت نفسه أبقيتَ ـ ولا زلت تُبْقِى ـ على الاهتمام والانغماس فى دراسة مشكلات شديدة الارتباط بالوضع الحضارى/ الاجتماعى الراهن فى مصر. فهلا تفضلت بشرح

الكيفية التى أمكنك بها الإبقاء على هذا التصرف؟ وما هى الصعوبات أو الصراعات التى واجهتك فى هذا الصدد؟ وأى الجمهورين من المتلقّين، المصرى أو العالمى، كان أسرع فى الاستجابة لبحوثك؟ وأخيرا، ما هى الدروس المناسبة التى يمكنك أن تعطيها لتلاميذك؟

جـ: البداية المبكرة لمسألة ازدواج الهوية فى حالتى ترجع إلى أيام تلمذتى فى سنوات الليسانس، فقد كنت فى السابعة عشرة من عمرى عندما بدأت أتذوق الفلسفة اليونانية، ومنها إلى الموسيقى الأوروبية الكلاسيكية، ثم إلى الأدب الرومانسى الإنجليزى. ولا زلت أذكر استجابتى لهذه المكتشفات، فقد عشت شبيها بالمسحور، وأذكر فى الوقت نفسه أن هذا التطور فى حالتى لم يسبّب لى أى صراع مع اهتمامى العميق الذى كان قائما لدىَّ من قبل بالموسيقى العربية والأدب العربى القديم، وربما كانت هذه البداية المشحونة قِيَميًّا، والتى كانت متمكّنة منى عندما بدأت اتصالى بالنواتج الحضارية العالمية، وكون هذه النواتج العالمية لم تحدث اضطرابا يُذكر فى نظائرها المحلية فى نفسى. . أقول ربما كان هذا التجمع الذى توفر فى داخلى على هذا النحو هو الذى أرسى لدى المتطلبات الأولية، بل والمنبئات، بما حدث لى فى المراحل العمرية التالية. وعندما بدأت العمل للحصول على إجازتى الماجستير والدكتوراه (فى جامعة القاهرة) لم يحدث قَطّ أن تبنيت فى الحكم على عملى معايير مزدوجة (أعنى معيارًا للاستعمال المحلى وآخر للظهور بمظهر العالمية)، بل كنت مقتنعًا دائما بأن العمل الجيد يجب أن يكون جيدا حيثما حلّ. ولذلك فقد جاء قرارى بالسفر إلى الخارج عقب حصولى على الدكتوراه كخطوة طبيعية إلى الأمام لكى أتعلم ما أسدُّ به ثغرات بعينها لم أكن قد اكتشفتها وأنا أنجز دراساتى المطلوبة بعد التخرج. ومن ثم فقد أملى علىَّ خطوةَ السفر إلى الخارج شعورٌ بالاتساق المنطقى والاستمرار الطبيعى مع مقدماتى. وفى الوقت نفسه كانت لدىَّ حينما عزمت على السفر أجندتان، إحداهما عامة والأخرى خاصة. فأما العامة فكان القصد منها أن أُعرّض نفسى لكل أنواع النواتج التى اعتبرتُها فُرَصًا حضارية، كالمتاحف والمعارض الفنية،

والحفلات الموسيقية، والمسارح. وكانت هذه فى مجموعها خبرة ممتعة حقا. إلا أن أجندتى الخاصة باكتساب المهارات الأكاديمية كانت تُعطى الأولوية حيثما وقع صراع بين الأجندتين.

وأنا إذ أنظر إلى الوراء لأسترجع ذكريات هذه الخبرة الفوَّارة، أجدنى مقتنعا بأنها كانت تمضى بى على طريق كنت على ألفة به من قبل، وكان طريقا يتجه بى إلى ترسيخ التكامل بين كونى محليا وصيرورتى عالميا. وقد أتبعتُ هذه الحركة فيما بعد ببذل جهود أخرى كانت تحمل الدلالة نفسها، ولكنها أصبحت مصحوبة بوعى أوضح وتصميم أقوى. وكان من أهم معالم هذه الجهود التالية رحلتى الطويلة الثانية إلى لندن (من أغسطس ١٩٦٣ إلى سبتمبر ١٩٦٤)، ثم كان المَعْلَم التالى رحلتى إلى ميونيخ (قاصدا معهد **ماكس بلانك** للطب النفسى فى سنة ١٩٦٩)، وكان المَعْلَم التالى لذلك رحلتى إلى جامعة لوند فى السويد (كأستاذ زائر خلال العام ١٩٧٢).

ومع ذلك فلم تكن هذه الأسفار بكل مكوناتها هى وحدها الجهود التى غذَّت النمو المتواصل لما أسميه الهوية المزدوجة أو الدور المزدوج لدىَّ؛ فقد كان هناك رافد آخر يغذى هذا النمو، وهو حرصى على أن أنشر فى الخارج تقارير عن بحوثى التى أجريها محليا. صحيح أن المشكلة الرئيسية التى كنت أعالجها فى بعض هذه التقارير لم تكن سوى محاولة استكشاف إمكانية ومترتبات تطبيق عدد من الأدوات والاختبارات الغربية على مجموعات من المصريين (Soueif & Meti-wally 1961)، لكن كانت هناك بحوث أخرى تناولتُ فيها مشكلات جرى تحديدها محليا، وقد تطلَّبتْ تخليق تصور وتكوين أدوات على مقاسها (بل ووضع تصميمات نظرية أحيانا) حتى أتمكن من دراستها بالصورة الواجبة (Soueif 1958a; 1958b; 1965; 1968)، وكان أمرًا هاما بالنسبة لى أن تُقبل للنشر فى الغرب تقارير بحثية كتبتها حول بحوث أجريتها هنا فى مصر. ولما كانت هذه الأعمال تنطوى على درجات متفاوتة من الابتكارية، وليست مجرد محاكاة لما قام به زملاؤنا الغربيون، ولا مجرد محاولات للإجابة عن تساؤلات صاغوها أو

أثاروها؛ ففى رأيى أن هذا كان يعنى اعترافا حقيقيا بجدارة أعمالى المحلية يصدر عن محكِّمين مقيمين على الجانب الآخر من السور. وبالربط بين هذا الذى ذكرت، والاعتراف الذى لقيته من قبل عند زملائى المحليين، فقد رأيت فى ذلك ما يعنى أن جانبى هويتى المزدوجة، المحلية/ العالمية، يتعايشان فى نوع من الانسجام أو التكافل. ومن أوائل الأمثلة التى واجهتها وقد شهدت لى بهذه الحقيقة، ما صادفته حين استأذننى **هانز برنجلمان H.C.Brengelmann** فى سنة ١٩٥٧ أن يستخدم المقياس الذى ابتكرته لتقدير الاستجابات المتطرفة للبحث فى سمة التصلّب عند مجموعات مختلفة من المرضى النفسيين (Brengelmann 1959, 1960a, 1960b). وبعد شهور قليلة تلقيت استذانًا مماثلا من **بارندرخت J.T.Barendregt** (Barendregt & De Bruin 1961). وأسعدنى أن أعطى هذين العالمين الإذن المطلوب، وأسعدنى كذلك أن أقرأ بحوثهما بعد بضعة شهور.. وقد زودتنى هذه البحوث بمزيد من البصيرة بحقيقة المقياس الذى ابتكرتُه، وبعد بضعة أعوام لَقِيَتْ هذه العلاقة التكافلية التى أتكلم عنها (بين وجهى هويتى المزوجة) دفعة جديدة، وذلك عندما اتصلت بى منظمة الصحة العالمية فى الستينيات المتأخرة، معترفة بمشروعى البحثى (فى تعاطى المخدرات)، وهو المشروع الذى صمَّمتُه ونفذته للنظر فى العوامل المقترنة بالتعاطى طويل الأمد للقنَّب؛ فقد طلبت إلىَّ المنظَّمة أن أكتب لها تقريرًا عن البحث فى أثناء مسيرته (Soueif 1967)، ثم لم تلبث أن دعتنى للمشاركة فى اجتماع علمى دعت إليه للانعقاد فى جنيف (وكان ذلك فى ديسمبر سنة ١٩٧٠)، ثم انتهى الأمر بالمنظمة إلى دعوتى لكى أقبل العضوية فى اللجنة الدائمة لخبراء بحوث التعاطى (وهى العضوية التى امتدت فاعليتها من عام ١٩٧١ إلى ١٩٩٥).

هذا وصف موجز للكيفية التى ترسَّخ بها دورى المزدوج. ولكن القصة زاخرة بتفصيلات أخرى. ولعلك لاحظت أننى اقتصرت على تأكيد الجانب الوردى فى هذه القصة، ولكن كانت هناك جوانب أخرى أثارت لَدَىَّ مشاعر الإحباط، وقد أتتنى عناصرها من الجبهتين. من هذا القبيل: قصور التسهيلات البحثية فى مصر،

ومظاهر الانحياز التى كنتُ أواجَه بها فى الخارج (وكانت تبدو مقنَّعة أحيانا، وسافرة بلا حياء أحيانا أخرى، وممتزجة كذلك بتعبيرات أقرب إلى الهيمنة)، ومظاهر الغيرة المهنية فى الداخل والخارج معًا... إلخ. ولكننى أشهد بأن سيرة هذه الإحباطات، رغم أنها كانت مخيبة لبعض الآمال، لم تبلغ آثارها فى النفس حد التدمير.. ومن ثم أجدنى الآن، وأنا أحاول أن أسجل الحساب الختامى لاستثماراتى التى وظفتها فى مسألة الدور المزدوج، أجد أن الحصيلة النهائية مُرضية.. بل وأشعر أننى كوفئت بسخاء جزاءً وفاقا لأسلوب أدائى الدورين. فعلى الصعيد العالمى فزت بمساحة واسعة من القراءة لأعمالى، كما أن نتائجى تم الاستشهاد بها فى كثير من المؤلفات، وكذلك ناقش نتائجى وحججى علماء جادون.. وأخيرا وليس آخرا فقد دعانى مجلس الشيوخ فى الولايات المتحدة الأمريكية (فى مايو سنة ١٩٧٤) لتقديم شهادة علمية حول الآثار بعيدة الأجل لتعاطى القنَّب أمام اللجنة الموكول إليها النظر فى موضوع المخدرات وعلاقتها بقواعد وقوانين الأمن الداخلى ذات المهام التشريعية. هذا على الصعيد العالمى. أما على الصعيد القومى فقد أتيحت لى تسهيلات طيبة (فى حدود ما هو ممكن فى دولة نامية) وذلك فى رحاب المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية. كما أن دراساتى فى حقل المخدرات اعتبرت من بين مجموعة بنود الجدارة التى حُسِبَت لى عند منحى جائزة الدولة التقديرية. ثم توّج هذا كله عندما صدر قرار رئيس مجلس الوزراء فى سنة ١٩٩٠ بتعيينى رئيسا للجنة المستشارين العلميين المنبثقة عن المجلس القومى لمكافحة وعلاج الإدمان.

وفى رأيى أن المرء يمكن أن يفوز بتحقيق معظم مخططاته إذا اجتمع لديه وضوح الرؤية لأهدافه، مع التصميم على تنفيذ خططه، مع المرونة فى البحث عن طرق بديلة يمكنها أن تؤدى إلى الأهداف المنشودة، مع قدر من النزاهة والاستعداد لقبول التضحيات أحيانا.. على أن يقترن هذا كله بتوجُّه واقعى نحو

حماية ما هو جوهرى فى تقدير الذات من الآثار المدمّرة التى قد تترتب على بعض الخبرات الصادمة.

س: بصفتك رائداً عربيا فى التخصص العيادى ولك خبرة عريضة فى هذا المضمار، كيف تنظر إلى علم النفس العيـادى فى مصر خاصة، وفى العالم العربى عامة؟

جـ: فى أواخر الخمسينيات بدأ الطلاب فى مصر يتعلمون ما هو نموذج الأخصّائى العيادى كعالِم تطبيقى، إلا أن تدريس العلوم النفسية فى جامعاتنا يتقدم فى ظل ظروف معاكسة، والنتيجة أن هذه الظروف تفرض عليه قيودا تؤدى أحيانا إلى بطء هذا التقدم، وأحيانا إلى تردده. وأستطيع أن أبرز فى سياقنا الراهن ظرفين هامين من بين هذه الملابسات، أحدهما تنظيمى، والظرف الآخر يتعلق بالطريقة التى يُجرى بها كثير من الزملاء بحوثهم. فكون أقسام علم النفس لا تزال جزءا من كليات الآداب لدينا، فذلك أمر لا يساعد على تحقيق ما نتصوره من نمو علمى راسخ للتخصص الإكلينيكى. إضافة إلى ذلك نجد أن معظم الإصدارات الإكلينيكية للزملاء المصريين إنما يوجهها وجود اختبارات معينة، وتسيطر عليها روح إمبريقية جدباء.. لذلك أصبح واجبا على الجميع أن يجدوا حلولا ابتكارية للقيود التنظيمية الناجمة عن البقاء ضمن إطار كليات الآداب. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى آمل أن تأتى أجيال جديدة من الباحثين تقدم بحوثا ينصرف الجهد فيها إلى حل المشكلات السيكولوجية، لا مجرد رصد لدرجات على اختبارات أو استخبارات. وبالرجوع إلى خبرتى الشخصية، أرى أن المواطنين فى مجتمعى فى مسيس الحاجة إلى الخدمات النفسية العيادية. لذلك أتوقع أن تزدهر مهنة التخصص العيادى فى مقبل الأيام. ومن منطلق هذا التوقع أجد أنه واجب قومى علينا أن نسارع بإزالة جميع العقبات التى تعوق النمو الصحى للتخصص وللمهنة. وبهذه المناسبة فإن الأخصائيين العياديين فى مصر سوف يلزمهم أن ينشّطوا قدراتهم الإبداعية لابتكار أدوات للتقدير التشخيصى وأساليب العلاج أفضل مما هو متوفر الآن فى جعبتهم؛ فالتقنيات المتوفرة حاليا

تتفاوت فيما بينها باعتبار قابلية كل منها للنقل عبر الأسوار الحضارية. وفى الوقت نفسه تتباين القطاعات الرئيسية للجمهور فى مصر تباينا واسعا فيما بين بعضها وبعض على محور التعليم/ العصرية. وبحساب جميع التباديل والتوافيق فى هذا الصدد، يبدو بوضوح أنه سوف يلزمنا أن نبتكر نمطا بالغ التعقيد من الحلول التى تسفر عن كم كبير وتحويرات أساسية و- أو - ابتكارات تسمح بالإجابة عن سؤال «ما هى التقنية التى تفيد هذا القطاع أو ذاك من قطاعات المجتمع؟». أما عن المجتمعات العربية المحيطة بنا، فمع أن المناخ الاجتماعى الحضارى القائم فى تلك المجتمعات لا يزال يعوزه الكثير لكى يصبح مواتيا للنمو الصحى للتخصص العيادى، فأنا واثق من أنه إذا وفق علماء النفس المصريون فى خطواتهم التى سوف يخطونها فسوف يساعد ذلك زملاءنا العلماء العرب فيما يتخذونه من قرارات فى هذا الصدد.

س: أين يتجه علم النفس العالمى الآن فى رأيك؟

جـ: تتزايد الآن أعداد علماء النفس، وخاصة خارج الولايات المتحدة الأمريكية، الذين يعبّرون عن عدم رضاهم عن التسليم بـ عمومية/ عالمية علم النفس الأكاديمى كما يقدمه معظم السيكولوجيين الأمريكيين. والنقطة الرئيسية فى هذا الصدد هى أن هذه السيكولوجيا تجنح إلى المركزية الأمريكية، لأنها من حيث كونها نتائج لبحوث بعينها فقد أجريت على أفراد أمريكيين، ومن حيث كونها توجهات تطبيقية فقد وُجّهت إلى ابتكار أنواع الخدمات المناسبة لمشكلات الحياة الأمريكية خاصة والغربية عامة. والواقع أن هذا تناقض فى الحدود أن تكون إلى هذا الحد متمركزا فى الغرب وتظل مع ذلك تصر على توفر المصداقية العالمية لممارساتك. وربما أمكن توضيح المغالطة المخبَّأة وراء هذا التناقض على النحو الآتى: «عندما نتجه إلى الكشف عن القوانين الأساسية المنظمة للسلوك فلا أهمية للحضارة والفروق الحضارية». مثل هذا القول ينطوى على تبسيط مُخِلّ. وفى مواجهته يؤكد جميع الآخذين بهذا النوع من النقد أنه آن الأوان لشحذ النظرية والتطبيق فى علم النفس بما يتناسب ودور الحضارة فى تشكيل الحياة النفسية. وقد طرحت فى هذا الصدد تشكيلة عريضة من الحلول

(مثال ذلك: Oerter et al, 1996; Minoura 1996; Triandis 1996; Gergen - et al. 1996; Eysenck 1996.)

ولابد هنا من بذل جهود كبيرة فى المجالين النظرى والإمبيريقى حتى يمكن الحسم بين هذه المقاربات المطروحة.

س: إلى أين ينبغى لعلم النفس العالمى أن يتجه؟

جـ: لا يجوز للاعتراضات التى أثيرت، وبوجه حق، ضد التيار الغالب الآن فى علم النفس ـ ومعظمه مصنوع فى الولايات المتحدة الأمريكية ـ لا يجوز لها أن تؤدى بنا، وعلى غفلة منا، إلى أن نترك الجمل بما حمل. وبغض النظر عن كثير مما يرد فى الجدل الدائر حولنا فى هذا الصدد، فقد كان علم النفس منذ تم ابتكاره (من خلال أعمال فيبر، وفخنر، وإبنجهاوس، وجولتون.. إلخ) يحمل فى طياته من الخصائص ما أهله لأن يقوم كنظام علمى ينصب أساسا على الكشف عما هو متواتر (نظامى) فى ظواهر الخبرة والسلوك. وعلى ذلك يجب التغلب دائما على كل ما يقوم فى أثناء مسيرته من أزمات، بما يزيد من احتمالات ثرائه وبأقل قدر ممكن من احتمالات تخريب هويته. وفى هذا السياق يمكننى أن أعدد بعض الآمال التى قد يتمكن علم النفس فى أثناء مسيرته من تحقيقها فى المستقبل القريب:

(أ) أن تجد البحوث المتنبهة لزاوية النظر الحضارية قدرا من التشجيع يفوق ما تلقاه الآن.

(ب) وأن يؤدى هذا النمو إلى تخلُّق منظور أقل تشبعا بالمركزية الغربية، ومن ثم إلى تصحيح الأخطاء الخطيرة التى ينطوى عليها قدر كبير من التصور والتنظير الآن (مثال ذلك: موضوع بناء الذات، هل الذات أساسا فردية أم تبادلية الاعتماد).

(جـ) وأن يؤدى هذا التطور إلى أن تنعكس آثاره فيما سوف يتحقق من تطبيقات تكون لها أهميتها عبر الأطر الحضارية (Soueif 1987).

(د) وأن يؤدى هذا بدوره إلى اختفاء الاتهام القائل بأن علم النفس بصورته الحالية يفكر محليا وينشط عالميا ليظهر بدلا منه ما يدل على أن علم النفس أصبح يفكر عالميا وينشط محليا.

(هـ) وأن يصبح تدفق البحوث السيكولوجية الموثوق بها مزدوج الاتجاه، أو بالأحرى متعدد الاتجاهات، بدلا من كونه الآن وحيد الاتجاه غالبا (من أمريكا خاصة، والغرب عامة، إلى سائر أنحاء العالم).

(و) وأخيرا وليس آخرا، أن يتجاوز علماء النفس المنتمون إلى الأوطان المختلفة (أو بالأحرى الأطر الحضارية المختلفة) أن يتجاوزوا سلوكياتهم العازلة (أو المعزولة)، وهى السلوكيات التى ـ أرادوا أم لم يريدوا ـ تنحو إلى إخفاء كثير من أنواع الانحياز ضد الحقيقة.

المصادر العربية

سويف (مصطفى) (١٩٥٠) **الأسس النفسية للإبداع الفنى: فى الشعر خاصة**، القاهرة: دار المعارف.

ـــــــــــ (١٩٥١) الأزمة الراهنة فى علم النفس الاجتماعى، **مجلة علم النفس**، ٧, ١٧٧-١٩٤.

ـــــــــــ (١٩٥٤- أ) **الأسس النفسية للتكامل الاجتماعى: دراسة شبكية ارتقائية**، القاهرة: دار المعارف.

ـــــــــــ (١٩٥٤ - ب) المفاهيم فى علم النفس الاجتماعى، **الكتاب السنوى فى علم النفس**، مجلدا ٢٢٣-٢٣٢.

ـــــــــــ (١٩٥٨) الاستجابات المتطرفة لدى مجموعة من الأحداث الجانحين، **المجلة الجنائية القومية**، ١, ٢٤-٣٨.

ـــــــــــ (١٩٦٣) **مقدمة لعلم النفس الاجتماعى**، القاهرة: مكتبة الأنجلو.

ـــــــــــ (١٩٩٦) **المخدرات والمجتمع: نظرة تكاملية**، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، رقم ٢٠٥.

المصادر الأفرنجية

Barendregt, J.T.& De Bruin, A.T. (1961) Prediction of the degree of reaction to LSD - 25, in J.T.Barendregt ed. **Research in psychodiagnostics**, The Hague: Mouton, 184-202.

Barlow, D.H., Hays, S.C. & Nelson, R.O. (1984) **The scientist /**

Practitioner, New York: Pergamon.

Brengelmann, J.C. (1959) Abnormal and personality correlates of creativity, **J.ment. Sciences**, 105, 142-162.

---------- (1960 a) Extreme response set, drive level, and abnormality in questionnaire rigidity, **J.ment. Sciences**, 106, 171-186.

---------- (1960 b) A note on questionnaire set, **J.ment. Sciences**, 106, 187-192.

Brett, G.S.A. (1921) **History of psychology**, London: Allen & Unwin.

British J.Addiction (1988) Conversation with Mustafa Soueif, 83, 131-139.

Eysenck, H.J. (1996) Cross cultural psychology and the unification of psychology, **World psychology**, 1/4, 11-90.

Gergen, K.J., Gulerce, A., Lock, A. & Misra, G.(1996) Psychological science in cultural context, **American psychologist**, 51/5, 496-503.

Minoura, Y. (1996) A plea for a hypothesis - generating approach to link the individual's world of meaning and society's cultural orientation: A commentary on Oerter et al., **Culture & psychology**, 2/1, 53-62.

Murphy, G. (1938) **A historical introduction to modern psychology**, London: Kegan paul.

Oerter, R., Agostiani, H., Kim, H. & Wibowo, S.(1996) The concept of human nature in East Asia: Etic & Emic characteristics, **Culture & Psychology**, 2/1, 9-52.

Soueif, M.I.(1958) Extreme response sets as a measure of intolerance of ambiguity, **Brit. J.Psychology**, 49, 329-334.

---------- (1965) Response sets, neuroticism, and extraversion: A factorial study, **Acta Psychologica**, 24,29-40.

---------- (1967) Hashish consumption in Egypt: with special referenec to psychosocial problems, **Bulletin on Narcotics**, 19/2, 1-12.

---------- (1968) Extremeness, indifference and moderation response sets: A cross-cultural study, **Acta psychologica**, 28,63-75.

---------- (1972) The social psychology of cannabis consumption: myth, mystery and fact, **Bulletin on Narcotics**, 24/2, 1-10.

---------- (1973) Cannabis ideology: a study of opinions and beliefs centering around cannabis consumption, **Bulletin on Narcotics**, 25/4, 33-38.

---------- (1976) Cannabis type dependence: The psychology of chronic heavy consumption, **Annals of the New York Academy of Sciences**, 282 (part VI), 121-125.

---------- (1987) Mental health: towards a culture-fair definition,

Paper presented at the Cairo World Congress for Mental Health, Cairo, 18-22. October.

----------, El-Sayed, A.M., Darweesh, Z.A.& Hannourah, M.A. (1980) **The Egyptian study of cannabis Consumption**, Cairo: The National Centre for Social and Criminological Research.

---------- & Metwally, A. (1961) Testing for organicity in Egyptian psychiatric patients, **Acta psychologica**, 18, 285-296.

Triandis, H.C. (1996) The psychological measurement of cultural syndromes, **American psychologist**, 51/4, 409-415.

الحوار السادس

وقد نشر فى دورية « العلوم الاجتماعية » الكويتية
فى سنة ٢٠٠٠

مسائل تطرق إليها هذا الحوار

- التحولات الرئيسية فى المسيرة الأكاديمية.
- الاهتمام بالبحوث الحضارية المقارنة.
- صداقتى بالأستاذ أيزنك.
- كيف أختار تلاميذى للدراسات العليا.
- الجوانب السلبية فى صورة علم النفس كما ترسخت فى بعض الأذهان.
- أوضاع الخدمة النفسية الآن فى مصر وبلدان العالم العربى.
- انطباعاتى حول جائزة الدولة التقديرية.
- خططى للمستقبل.

الحوار السادس

س: هل يمكن أن تحدثنا عن نفسك؛ من هو أ.د. مصطفى سويف، الإنسان والعالم؟

جـ: مصطفى سويف الإنسان مواطن مصرى، شديد الوعى بمصريته دون أن يكون ذلك على حساب عروبته، بل إثراء لها. . وشديد الوعى بعروبته دون أن يكون ذلك على حساب إنسانيته، بل إثراء وتعميقا للانتماء الإنسانى العام.

ولدت فى السابع عشر من شهر يوليه سنة ١٩٢٤، فى مدينة القاهرة، وأقمتُ فيها معظم سنوات عمرى. وقد حصَّلت فيها قدرا كبيرا من تعليمى، وارتبطتُ بعملى فى جامعتها، وتزوجت وأنجبت بنتين وولدا، ولا تزال هذه الأسرة المحدودة هى قرة عينى. وفى القاهرة أيضا تخلقت حولى علاقات صداقة آسرة بما انطوت عليه من قيم وجدانية وعقلانية، ولكنها لم تقتصر على القاهرة، فقد نعمتُ بمزيد من الصداقات التى امتدت لتشمل كثيرا من مدن العالم الرحب، حيث كنت أتحرك جيئة وذهابا. هذا عن شخصى بوصفى إنسانا.

أما عن ارتباطى بالعلم؛ فمع أن اسمى يرتبط أساسا بالعلوم النفسية، فحقيقة هذا الاقتران أنه مفعم فى كل جزئية منه بروح العلم على إطلاقه؛ فوحدة العلوم عندى هى الحقيقة التى أعيشها من وراء الممارسات الجزئية للتخصص.

س: كان الاهتمام المبكر لكم بدراسة الفلسفة، ثم تغير إلى مجال علم النفس. كيف ـ ولماذا ـ حدث هذا التغير؟

جـ: بزغ اهتمامى المبكر بالفلسفة من خلال اهتمامى العام منذ صباى بالقراءة؛ فى هذا الإطار وقع فى طريقى، مصادفةً، كتاب مؤرخ الفلسفة **ويل ديورانت** المعنون: «قصة الفلسفة» ـ تصنيف الأستاذين: **أحمد أمين، وزكى نجيب محمود**

ـ فقرأته كاملا، وكانت حصيلتى الكبرى من هذه القراءة أن اكتشفت نفسى فى هذا المجال. وكنت حينئذ قد أتممت دراستى الثانوية، فقررت أن تكون دراسة الفلسفة هى مجال تخصصى فى الدراسة الجامعية، وأمكن لى فعلا أن أنفّذ عزمى هذا. وسعدتُ بهذا التنفيذ أيما سعادة طوال السنوات الأربع من دراستى الجامعية حتى حصلت على درجة الليسانس. هكذا كانت بدايتى مع الفلسفة. وكان ما يأسرنى داخل الفكر الفلسفى عنصران، أو عمليتان عقليتان، هما: إقامة بناء نظرى، وإقامة البرهان على صحته. وعندما شارفتُ على التخرج، كنتُ قد عقدتُ العزم على أن يكون تخصصى الدقيق فى فلسفة الجمال، وكنتُ فى قرارى هذا متأثرا بعشقى للفنون، وللشعر والموسيقى بوجه خاص، وكانت فلسفة **هيجل** مسئولة عن ذلك إلى حد كبير. وفى هذا التوقيت بالذات أتيح لى أن أقرأ فصلا فى الجماليات التجريبية أورده عالم النفس الشهير **روبرت وودورث** فى كتابه عن «علم النفس التجريبى». وعندما انتهيت من قراءته كنت قد عقدتُ النية على أن تكون دراستى للجماليات بالأسلوب العلمى الذى تقدمه مناهج البحث فى علم النفس. فكانت هذه هى خطوتى الأولى داخل ساحة هذا العلم.

وعندما أسترجع هذا الماضى الآن لأخرج بتلخيص لما حدث، أجد أن عنصر البرهان على صحة التفكير كان هو العامل الحاسم فى انجذابى إلى الفلسفة أولا، ومنها إلى علم النفس أخيرا؛ وكان الإحكام المنطقى للبرهان الفلسفى أولاً، لكن ثقل البرهان العلمى عندما انكشف لى كانت له الغلبة فى النهاية.

س: كتبت فى البداية الشعر والقصة القصيرة، وكان لك اهتمام أيضا بالموسيقى الكلاسيكية، ثم توقفت فجأة واتجهت إلى البحث العلمى. لماذا؟ هل يمكن أن تحدثنا عن العوامل التى وقفت وراء هذا التغير؟ وهل هناك تناقض بينهما؟

جـ: عندما قررت أن أستثمر حياتى فى معايشة البحث العلمى وممارسته،

وجدتنى أتجه مباشرة إلى التفكير فى الكيفية التى أضمن بها أن يتم هذا الاستثمار بأفضل قدر ممكن؛ وتمثلتُ الحل عندئذ على أن يكون بتوجيه كل طاقاتى الإنتاجية وجهة واحدة، وهى خدمة الفكر العلمى تلقيا وإنتاجا. وكان معنى ذلك مباشرة أن أتوقف عن محاولات الإنتاج الأدبى، على أساس الحكمة القائلة: «ما جعل الله لامرئ من قلبين فى جوف واحد».

ومع ذلك يجب أن أعترف هنا بأن حنين العودة إلى النشاط الأدبى ظل يراودنى بعد ذلك فترة طويلة امتدت إلى سنوات.. وربما كانت عنايتى باللغة ـ كما تبدو من خلال كتاباتى العلمية حتى وقتنا الحاضر ـ شاهدًا على بقايا هذا الحنين. وجدير بالذكر هنا أن توقفى عن إنتاج الأدب لم يمتد قط إلى مجال التلقى، فأنا ما زلت أستمتع من حين لآخر بتلقى الشعر، قديمه وحديثه، العمودى منه والمرسل، وأتلقاه بالعربية والإنجليزية.. بل وبالفرنسية أحيانا، وإن كانت هذه الأحيان قليلة. وما زلت أقرأ القصة القصيرة من حين لآخر، وأقرأ الرواية الطويلة كذلك ولكن فى اقتصاد ملحوظ. ومن أحدث قراءاتى فى هذا الصدد «الحب فى المنفى» **لبهاء طاهر**، ومجموعة قصصه القصيرة «بالأمس حلمتُ بك».

أما عن الموسيقى الكلاسيكية فأنا لم أتوقف قط عن تلقيها، وما زلت أستمع، وبكثرة، إلى متتابعات **باخ**، وسوناتات **بيتهوفن**، وما زلت أعاود الاستماع إلى الميتسوسوبرانو **كاثلين فيرييه**، وإلى السوبرانو العظيمة **كيرى تيكاناوا**، كما أنعم بالاستماع إلى عزف **ياشاهايفتيس** على الكمان.

النقطة الجديرة بالوقوف عندها فى هذا الشأن، أن هذه الرابطة القوية والمتصلة التى لا تزال تدفعنى إلى الاستزادة من تلقى هذه الفنون، تنفذ إلى مستويات بالغة العمق فى نفسى، حيث تلتقى مع الخبرة العلمية كما أعايشها، ولا شك عندى فى أنها تضيف إلى إنضاج هذه الخبرة بصورة ما، والوصول بهذا الإنتاج إلى مستويات ما كانت لتتيسَّر لى لولا هذا الالتقاء وما يتولد فى كنفه من تفاعلات.

س: لكم اهتمامات متنوعة، منها: الإبداع، وعلم النفس العيادى، وتعاطى المخدرات، والشخصية... إلخ. ما العوامل التى وقفت وراء اختياركم لهذه المجالات؟

جـ: أولا، هذه المجالات ليست مستقلة تماما أحدها عن الآخر؛ ولكى تتمثل هذا الاتصال على حقيقته يكفى أن تتذكر دائما أن الذى يبدع هو الشخص متكاملا، والذى يمرض هو الشخص متكاملا، وأن الصلة بين المخدرات والمرض النفسى قائمة، والصلة بين طراز الشخصية والتعاطى قائمة، وبين الإبداع والمرض النفسى قائمة كذلك... إلخ. هذه حقيقة، ومعنى ذلك أنك إذا دخلت عالم البحث فى أى مجال من هذه المجالات المذكورة، ثم حاولت بعد بضع خطوات أن تتعمق بعض الشىء، فسوف تجد أن أسئلتك تقود خطواتك من المبحث الأصلى إلى مجالات البحث الأخرى، وهذا بالضبط ما حدث لى بالنسبة لتحركى بين معظم هذه المجالات؛ فقد قادتنى دراساتى فى الإبداع إلى طرح سؤال بدا لى حينئذ أنه يفرض نفسه تلقائيا، وهو: ماذا يحدث لقدرات التفكير الإبداعى حينما نمرض نفسيا ؟ وعندما تبلور السؤال على هذا النحو فى ذهنى أثار اهتمامى، وهذا الاهتمام نفسه جاء مقترنا بتصور معيَّن لم ألبث أن صغته صياغة أقرب إلى الفرض العلمى، فقد تصورت أن قدرات التفكير الإبداعى هى فى الغالب أول ما يمرض فى الشخص، لأنها أرقى من قدرات التفكير النمطى (حسب التصور التراتبى للوظائف الرئيسية للجهاز العصبى كما صاغه العالم النيورولوجى **جون هيولنجز جاكسون**)، ثم كانت خطوتى التالية أن قررت أن المسألة تستحق أن توضع موضع الدراسة العلمية العيادية لأنها قد تصل بنا إلى تكوين اختبارات نفسية يمكن استخدامها كأدوات لقياس درجة الانحراف المرضى لدى المريض النفسى والعقلى.

المشكلة أن بعضنا ينسى أن الواقع النفسى كلٌّ متصل أصلا، وبفعل هذا النسيان يفرض على حركته العقلية والبحثية قيودًا مستوحاة من التقسيمات

المصطنعة، أى التى اصطنعناها نحن لنيسّر على أنفسنا أمر المسيرة فى عالم البحث. ولو أنك نظرت مدقّقا فى هذا الموضوع ـ موضوع يُسْر الحركة أو تيسيرها بين المجالات البحثية المحدَّدة سلفًا ـ لوجدت أن هذا التيسير شديد الفائدة لنا ولعلمنا، ويكفى أن تفكر قليلا لتكتشف إحدى الطرق المهمة الموصّلة إلى استحداث كيانات علمية جديدة نسميها التخصصات البينية.

س: بدأت العمل فى مجال تعاطى المخدرات فى عام ١٩٥٧، ولكم إنجاز وإسهام بارز على المستويين: المحلى والعالمى؛ فما أهم جوانب الاهتمام بهذا الموضوع؟ وما هى العوامل التى ساعدت على مواصلة العمل فى هذا المجال على مدى نصف قرن تقريبا؟ وما هى العقبات التى وقفت أمامكم فى هذا الشأن؟.. ولماذا اتجه اهتمامكم فى البداية إلى النشر العلمى باللغة الأجنبية فترة طويلة، ثم بعد ذلك باللغة العربية؟

جـ: نعم، بدأت العمل فى مجال بحوث تعاطى المخدرات فى نوفمبر سنة ١٩٥٧، بوصفى عضوا فى فريق بحثى يرأسه أستاذنا المغفور له الدكتور **مصطفى زيور**، ونشرت باسم الفريق تقريرين مستفيضين عن مسيرة البحث، ظهر أحدهما فى سنة ١٩٦٠، وظهر الثانى فى سنة ١٩٦٣. وقد انصب التقريران على المسألة المنهجية، وهما باللغة العربية. بعد ذلك اختلفنا، الأستاذ وأنا، حول المسار المنهجى الذى سوف نتبعه فى البحث الرئيسى، فكان هذا الخلاف نهاية للتعاون بيننا، وكان فى الوقت نفسه نهاية لحياة الفريق. وقعت هذه النهاية فى أكتوبر سنة ١٩٦٤. وفى سنة ١٩٦٦ دعانى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية للعودة إلى البحث ومواصلته من حيث توقف، وبالصورة التى أرتضيها، وكان المركز منذ البداية هو الراعى الأدبى والمادى للبحث، فقبلتُ الدعوة وكوَّنتُ فريقا بحثيا بالصورة التى أرتضيها. وبدأنا العمل مباشرة.

وأنت تسألنى الآن عن أهم جوانب الاهتمام بالموضوع، وهذا سؤال

مشحون بعلامات استفهام كثيرة، وإليك إجاباتى عن هذه العلامات. **أولا**، كان واضحا أن المركز القومى للبحوث مهتم بالبحث، لأن مشكلة المخدرات فى مصر مشكلة خطيرة، ولأنها تقع على الحدود بين الاجتماع والجريمة، وربما لأن المركز كان كذلك حديث النشأة فى ذلك الوقت؛ فكان تجمُّع هذه العوامل معًا حافزًا على إظهار اهتمامه بالصورة المناسبة. **وثانيا**، كان المجال بالنسبة لى مجالا مناسبا، إذ رأيته يسمح لى بتقديم نموذج ممتاز للبحث العلمى التطبيقى باسم العلوم النفسية، وهو أمر يدخل فى صميم اهتمامى بالبحث العلمى عموما، وفى مجال التخصص على وجه الخصوص. **وثالثا**، لم تكن هناك بحوث علمية سيكولوجية ذات وزن فى عالم تعاطى المخدرات فى ذلك الوقت، لا فى مصر ولا فى العالم خارج مصر، فكان فى ذلك ما يغرينى باكتشاف المجهول. **ورابعًا**، كنت فى ذلك الوقت عائدًا لتوّى من رحلتين علميتين طويلتين، كانت إحداهما من منتصف سنة ١٩٥٥ واستمرت حتى أواخر سنة ١٩٥٧، وكانت الثانية من منتصف سنة ١٩٦٣ واستمرت حتى أواخر سنة ١٩٦٤.

وكان اهتمامى الرئيسى متجها فى ذلك الوقت إلى تحصيل طرق البحث النفسى رفيعة المستوى وإتقان العمل بها (فى مستوى ما بعد الدكتوراه)، وكان طبيعيا عند العودة أن أرحب بالفرصة التى تتيح لى الاستثمار الاجتماعى للعلم الذى تعلمته. هذه كلها عوامل تجيب عن سؤالك حول أهم جوانب الاهتمام بهذا الموضوع، سواء من جانبى أو من جانب المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية.

نأتى بعد ذلك إلى سؤاليك عن العوامل المساعدة والعوامل المعوقة التى صادفتنى فى أثناء مسيرة البحث. بادئ ذى بدء يبدو واضحا أن الغلبة كانت للعوامل المساعدة، والدليل على ذلك أننا ـ أنا والزملاء ـ استطعنا أن نواصل المسيرة حتى الآن. أما عن طبيعة هذه العوامل فتلك قصة طويلة يمكننى إذا أسهبتُ فى سردها أن أملأ أكثر من مجلد كبير، ولكن فى حدود ما يسمح به مقامنا الحالى أستطيع أن أذكر لك بعض العناوين الدالة على هاتين الفئتين من العوامل؛ فأما عن العوامل المساعدة فهناك التوفيق فى الصيغة التى وضعت

لتكوين الفريق البحثى، وأنا أقصد هنا الفريق الثانى الذى تكوَّن فى سنة ١٩٦٦، ثم الصيغة التى اتَّبعتها لتشغيله، فقد يكون الفريق سليما ولكن يأتيه الإخفاق من سوء التشغيل. ثم هناك خصال الأعضاء الذين تكون منهم ذلك الفريق، وبوجه خاص خصالهم المتعلقة بالعمل الجماعى المنظم. ثم هناك نمط العلاقة التى تخلَّقت بيننا من ناحية، والمركز القومى للبحوث من ناحية أخرى، لأننا كنا ـ وما زلنا ـ نعمل تحت مظلَّته الأدبية والمادية. ثم هناك أنواع وأقدار متعددة من الاعتراف والتشجيع كنا وما زلنا نتلقاها من مصادر مختلفة فى الداخل والخارج. ثم هناك بطبيعة الحال الإرادة ومستوى الوعى الذى حاولتُ دائمًا أن أتسلَّح بهما طوال المسيرة حتى أظل جديرًا بقيادة المشروع، وهو أمرٌ أرجو دوام التوفيق فيه.

ثم نأتى إلى ذكر العوامل المعوّقة؛ وقد صادفت منها الكثير فى الداخل والخارج، ولكنى لا أحب أن أسترسل فى تفصيل الحديث عنها. ويكفى أن أقرر أنها تتسع لتشمل عوامل مؤسسية وأخرى فردية أو شخصية. وتتراوح العوامل المؤسسية بين أشكال فجَّة من التجاهل، وأشكال لا تقل عنها فجاجة من محاولات العدوان على المشروع. ولا تقل العوامل الشخصية عن العوامل المؤسسية فى قبحها، وهى تتراوح بين أشكال من الغيرة الصبيانية، وأخرى بالغة السوء من محاولات التخريب. ولكن ما يهمنى أن أبرزه هنا أن الغلبة كانت فى نهاية الأمر للعوامل الداعمة.

أما عن اللغة التى نشرتُ بها سلسلة بحوثنا فواضح أنها كانت العربية فى بداية الأمر (حين نشرتُ التقريرين الأول والثانى)، ثم تحولتُ بها إلى الإنجليزية فى معظم التقارير (حتى قرابة سنة ١٩٩٠)، ثم عدتُ بها إلى العربية بعد ذلك. وكان نوع الطالب والطلب هو العامل الذى أملى علىَّ هذه التحولات؛ ففى بدء العمل سنة ١٩٥٧ كان الطلب مصريا خالصا، فكان القارئ المتخيَّل عندى وعند الزملاء هو القارئ المصرى والعربى. ولكن فى سنة ١٩٦٦ بادرتنى هيئة الصحة العالمية (من جنيف) بالاتصال طالبةً أن أكتب لها ما تنشره، فكان أن كتبتُ لها بالإنجليزية. وتواصلت طلباتها بعدَ ذلك، وازدادت العلاقة توثُّقا بينها وإياى.

فلم يكن هناك بُدٌّ من الكتابة بالإنجليزية، وكان بودّى دائما طوال تلك الفترة التى امتدت منذ قرابة سنة ١٩٦٧ حتى سنة ١٩٩٠ أن أعود فأكتب بالعربية ما كتبته بالإنجليزية، لكن الوقت والطاقة لا يسعفان. وفى سنة ١٩٩٠، ومع اشتداد اهتمام الرأى العام المصرى والحكومة بموضوع تعاطى المخدرات (وذلك على أثر ظهور الهيروين بين مضبوطات الإدارة العامة لمكافحة المخدرات فى مصر منذ منتصف الثمانينيات)، كان معنى ذلك اشتداد الطلب على الكتابة بالعربية. وزاد هذه الحقيقة نصوعًا ما جاءنى من تكليف من الدولة بتشكيل «لجنة المستشارين العلميين» لتقدم المشورة العلمية اللازمة «للمجلس القومى لمكافحة وعلاج الإدمان»، وشكّلت اللجنة فعلا، وبدأنا العمل منذ منتصف سنة ١٩٩٠، فكان لزامًا علىَّ عندئذ أن أعود إلى النشر بالعربية.

أعتقد أننى بهذا التوضيح أكون قد وضعت النقاط على الحروف فيما يتعلق بالتردد بين الكتابة والنشر بالعربية أحيانا وبالإنجليزية أحيانا أخرى، فالمسألة فى نهاية الأمر متعلقة بوجود الطلب والطالب؛ من يطلب علىَّ أن أحاول قدر استطاعتى أن أخاطبه بلسانه.

س: لكم اهتمام بالبحوث الحضارية المقارنة فى عدة مجالات؛ منها مجال الشخصية، فلماذا لم يستمر هذا الاهتمام؟ وما هى الموضوعات التى ترى أنها فى حاجة إلى هذا النوع من الدراسات؟

جـ: نعم، عندى اهتمام بالبحوث الحضارية المقارنة فى عدة مجالات، يأتى فى مقدمتها مجال بناء الشخصية، ومجال علم النفس العيادى. وقد نشرت فى هذا الصدد أكثر من بحث، وذلك فى السنوات ١٩٦٢، و ١٩٨٥، و ١٩٩١.. ولعل هذه التواريخ الثلاثة توضح لك أن اهتمامى فى هذا الصدد مستمر لم يتوقف، غير أنه متقطع وليس متصلا؛ والسبب فى ذلك هو أننى أرى أن الأمر هنا خاص بزاوية نظر، وليس متعلقا بموضوع بعينه.. بمعنى أن جميع الموضوعات فى علم النفس قابلة لأن تعالج من زاوية النظر الحضارية المقارنة؛ ذلك أن الإطار

الحضارى يمكن اعتباره واحدًا من العوامل البيئية المتعدّدة المهيئة لصدور أى سلوك عن الفرد. . وبما أننا لا نستطيع أن نتخيل وجود إنسان يعيش بغير إطار حضارى، فلابد من أن يكون لهذا العامل إسهامه فى تشكيل أى سلوك يصدر عن هذا الإنسان، ومن ثم وجب أن يكون بين أدواتنا البحثية ما يمكّننا من أن نحدد حجم هذا الإسهام وشكله كلما احتجنا إلى ذلك. ولعلك على دراية بأمر التطور الجديد الذى طرأ على الميدان أخيرا، ومنذ سنة ١٩٩٥ على وجه التحديد، وهى السنة التى بدأت تُنشر فيها دورية جديدة باسم «الحضارة وعلم النفس» Culture & Psychology، مبشّرة بأن دور الإطار الحضارى فى تشكيل السلوك عند الفرد يستحق أن يلقى منا اهتماما منظما ومتسقا.

س: كان لكم علاقة وطيدة بالأستاذ هانز أيزنك (من جامعة لندن)، بوصفه أستاذًا وصديقا. فهل لك أن تحدثنا عن هذه العلاقة.

جـ: بدأت علاقتى بالمرحوم **الأستاذ أيزنك** فى أواخر سنة ١٩٥٤؛ فى ذلك الوقت كنت قد حصلتُ على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة، وكان قد لفت نظرى فى أثناء العمل فى الرسالة وما اقتضته من قراءة فى أدبيات التخصص أن معلوماتى فى موضوع قياس الاتجاهات النفسية محدودة جدا على الرغم مما لهذا الموضوع من أهمية، فعزمت على تصحيح هذا الوضع بعد الانتهاء من إعداد الرسالة. وفعلا، عندما حان الوقت المناسب كتبتُ خطابا إلى **الأستاذ فيليب فرنون** فى لندن (لأن له كتابا فى الموضوع بالاشتراك مع **جوردون ألبورت**) أسأله إذا كان من المناسب أن أقصد إلى معهده لدراسة هذا الموضوع، وفوجئت بالرد يأتينى من **فرنون** بعد أسبوعين ينبئنى بأن الأستاذ الحجة فى هذا الموضوع هو **الأستاذ هانز أيزنك** أستاذ علم النفس فى معهد الطب النفسى التابع لجامعة لندن، وقال إنه قام فعلا بتحويل خطابى إليه؛ وبناء على ذلك أعدتُ الكتابة إلى **أيزنك**، فلم يلبث **أيزنك** أن ردَّ علىّ، وجاء رده بالإيجاب والترحيب. وقال إنه يلزمنى فى هذه الحالة أن أبقى معهم فى المعهد مدة عام دراسى كامل، وليكن ذلك مع بداية العام الدراسى ١٩٥٥-١٩٥٦. كان هذا الرد الذى يتميز بالوضوح

والترحيب هو الخطوة الأولى فى قيام علاقتنا، علاقة علمية رصينة، مفعمة بالتشجيع الهادئ. ثم جاءت الخطوة الثانية بعد ذلك، فقد استأذنت جامعة القاهرة فى السفر لهذه المهمة العلمية، وسافرتُ فعلا فى أوائل أغسطس سنة ١٩٥٥. وفى لندن اتجهتُ إلى مكتب الأستاذ **أيزنك** صباح يوم ١٥ أغسطس حسب الموعد الذى حدَّده لى فى مراسلاتنا، وكان المكتب (والمعهد) قائما ضمن مبانى مستشفى المودزلى للأمراض النفسية (فى حى كامبرويل جرين). استقبلنى الرجل فى تمام الساعة الحادية عشرة كما اتفقنا، وأثار هذا التدبير شديد الانضباط مزيدا من الإعجاب فى نفسى بالرجل وبالنظام المحيط به. ثم جاءت الخطوة الثالثة؛ فقد امتدت مقابلتنا الأولى هذه لمدة ساعة كاملة، بدأها الرجل بترحيب بسيط وموجز، وبدأ مباشرة يسألنى عن مسيرتى العلمية حتى وصولى إلى الحصول على الدكتوراه، ثم عن الثغرات التى اكتشفتها فى معلوماتى، وحاجتى إلى التغلب عليها. وبعد أن انتهيت من إجاباتى كان واضحا لى أنه كوَّن لنفسه فكرة تكفيه لبدء العمل فى توجيهى، فطمأننى إلى أننى سوف أتعلم ما أريد أن أتعلمه، وسيكون ذلك عن طريق اشتراكى فى أحد المشروعات البحثية الجارية تحت إشرافه، وأوصانى بضرورة التمكن من دراسة الإحصاء بوجه خاص. وفى الحال واللحظة طلب السكرتيرة، وطلب منها أن تدعو أستاذ الإحصاء بالمعهد ليأتى وينضم إلينا فى هذه الجلسة، وحضر أستاذ الإحصاء **ماكسويل A.E.Maxwell** بعد بضع دقائق، وبعد أن قُدِّمْتُ إليه أفهمه **أيزنك** حدود المعلومات الإحصائية المتوافرة عندى، ثم ماذا يريدنى أن أضيف إليها. وانتهت الجلسة بالنسبة **لماكسويل** فقام ليعود إلى مكتبه، ثم قام **أيزنك** ليتمشى معى إلى غرفة السكرتيرة؛ وفى أثناء هذه الخطوات المحدودة أفهمنى أنهم يعدّون لى غرفة مكتب إلى جانب غرفته وضمن غرف سائر الباحثين الموجودين فى المعهد، ويتوقع أن يتم إعداد الغرفة لاستقبالى فى آخر أغسطس، وإلى أن يتم هذا الإعداد يمكننى المجىء إلى المعهد لاستخدام المكتبة والمطعم إذا أردت. وكان آخر سؤال وجَّهتُه إليه يتناول توقيت عُطلتهم الصيفية، وقال الأستاذ ببساطة: « نحن لا نأخذ عطلة، فإذا أراد أحدنا أن يستريح يوما أو بضعة أيام فهو يذهب

للراحة ثم يعود ». واتفقنا على أن آتى إلى مكتبى فى أول سبتمبر. وانتهينا عند مكتب السكرتيرة، حيث أوصاها بأن تصحبنى إلى مطعم المعهد لأن وقت الغداء قد حان.

هكذا كانت وقائع المقابلة الأولى. وقد تعمدتُ أن أرويها بقدر من التفصيل، لأنها تسهم فى إلقاء الضوء على منشأ صداقتنا؛ ذلك أن اللبنة الأولى فى قيام هذه الصداقة كانت إعجابى بأداء الرجل فى هذه المقابلة، وما يكشف عنه هذا الأداء من تنظيم واضح المعالم فى الفكر وانضباط لا يختل فى التدبير. أضف إلى ذلك ما لاحظته من خصال فى شخصيته بدت واضحة كذلك منذ اللقاء الأول؛ فقد كان الرجل بادى الدماثة منذ اللحظة الأولى، على درجة لا بأس بها من التحفظ فيما أبداه من ترحيب، وفى الروح الودية التى أحاط بها اللقاء، مما أشعرنى منذ ذلك الوقت المبكر بأننى صادفتُ الأستاذ الذى يناسبنى.

وحلَّ بنا سبتمبر سنة ١٩٥٥، واستقر بى الحال فى غرفة مكتبى. وعكفتُ على تعلُّم الإحصاء واكتساب مهارات استخدامه، وجرى ذلك تحت إشراف **ماكسويل**. وفى الوقت نفسه كان **أيزنك** قد كلَّف **سيريل فرانكس C.Francks** بأن يتولى قيادة خطواتى فى تعلُّم القياس النفسى. وبين **ماكسويل وفرانكس** تقدمتُ فى تحصيل ما يلزمنى تحصيله بخطى تتوالى فى سلاسة واطمئنان. وكنتُ ألقى الأستاذ كلما طلبتُ لقاءه، وحرصتُ على أن ألقاه بعد أن أقطع شوطا معقولاً فى تعلم الإحصاء. كان ذلك بعد شهرين، فى أول نوفمبر.. وأخبرته حينئذ بأننى انتهيتُ إلى تعلُّم معامل الارتباط المتعدد، ومعامل الارتباط الجزئى؛ فأبدى الأستاذ سروره بهذه الأنباء، وأشعرنى بأن ما أنجزتُه يُعدُّ تقدما ممتازا.

واستمر عملى يتقدم بخطى حثيثة؛ فكنت أذهب يوميا إلى مكتبى فى التاسعة صباحا، شأنى فى ذلك شأن سائر الباحثين فى المعهد، وكنت لا أبرحه عائدا إلى بيتى قبل الخامسة مساء.. وكثيرا ما بقيتُ فى المكتب إلى السابعة أو الثامنة، وكثيرا ما كنت أذهب إلى مكتبى أيام السبت، وربما الآحاد كذلك. وكنتُ سعيدا كل السعادة بهذا الجهد المتصل. وتوالت لقاءات ولقاءات بين الأستاذ وإياى على

امتداد الأسابيع والأشهُر، كان بعضها عفويا وكان البعض الآخر مخطَّطا، وكنت أخرج من هذه اللقاءات دائما محمَّلاً بمزيد من الاطمئنان على معدَّل تقدمى، ومزيد من المشاعر الجميلة نحو الأستاذ ونحو المناخ الأكاديمى الذى أرساه الرجل من حوله. وكانت، فى الوقت نفسه، مشاعر أخرى ممتعة تنمو كذلك بينى **وفرانكس** كنتُ أستشف منها مزيدا من رضا الأستاذ **أيزنك** عن تحصيلى.

وذات صباح استأذنت فى لقاء، وأذن الرجل مباشرة.. فأفهمته أننى أريد المشورة فى أمر بحث كنتُ مشغولا به فى مصر ولم أنته منه قبل السفر إلى لندن، وأننى كنتُ قد توقفتُ فى حيرة أمام بعض النتائج لا أدرى ماذا أفعل بها، وأن أفكارًا جديدة وردت إلى ذهنى فى أثناء إقامتى فى لندن.. فهل يسمح لى بعرضها عليه؟ وقال الرجل ببساطة: اكتُب إلى مصر ليرسلوا إليك أوراق البحث، واسألنى فيما تريد. وجاءتنى الأوراق كما طلبتُ. كانت هذه أوراق البحث فى موضوع الاستجابات المتطرفة. وأعددتُ ملخصا للفكرة الأصلية ولعدد من النتائج الأولية التى تشير إلى وجود نمط ما من الانتظام، وعرضتُها على الأستاذ، فنظر الأستاذ مَليًّا فيما قدَّمتُ إليه، وأظهر الرجل على الفور إعجابه بالفكرة، وبالنتائج الأولية، وشجَّعنى على أن أُعد الموضوع للنشر. وبدأت خطواتى فى هذا السبيل، وقادها الأستاذ برفق وحسم معًا، إلى أن انتهيت من كتابة النص الذى أرتضيه، وعندئذ حثَّنى على إرساله للنشر، وأرسلته فعلا إلى «الدورية البريطانية لعلم النفس»، ولم ألبث أن تلقيت من **جيمس دريفر** (وكان رئيس التحرير) خطابا جميلا بالقبول والتهنئة على أصالة الفكرة، وتم النشر فعلا فى سنة ١٩٥٨. وازددتُ إعجابا **بأيزنك** واحتراما لأستاذيته التى ترعى طالب العلم حتى ولو كان مشغولا بمشكلة بحثية خارج نطاق المسائل التى تشغل الأستاذ.

وتوالت أحداث كثيرة تحمل تلك الدلالة نفسها، وأحداث أخرى تحمل دلالات أكرم من سابقتها. فقد علمتُ ذات يوم بوجود برنامج مستقل عن برنامج البحوث الذى يديره الأستاذ مباشرة، يؤهل من يتقدمون إليه للحصول على دبلوم فى علم النفس العيادى. ولم يكن هذا فى حسبانى عندما جئت إلى **أيزنك**.

وعندما استفسرت منه عن كنه الدراسة فى هذا الدبلوم، علمتُ أنها تقوم على المحاضرات وعلى التدريب العملى الإكلينيكى، وأن التوجُّه الأساسى لهذا الدبلوم توجُّه علمى لا يقل فى موضوعيته وصرامته عن التوجه الأساسى للبرنامج البحثى. وراق لى أن أفكر فى البقاء فى المكان سنة إضافية أحصل فيها على هذا الدبلوم. وفاتحت **أيزنك** فى هذا التصور، فشجعنى على تنفيذه، وزاد على ذلك أن قال لى: سوف نحتفظ لك بغرفة مكتبك معنا هنا فى قسم البحوث، ولك أن تستمر فى المشاركة معنا إذا أردت واستطعت أن تجمع بين البحوث والدراسة للدبلوم. وازددت تقديرًا ومحبة للأستاذ. وأرسلتُ إلى جامعة القاهرة أطلب الإذن بمد مهمتى العلمية سنة إضافية. وتصادف فى ذلك الوقت أن تكدَّر الجو السياسى بين مصر وبريطانيا، ثم إذا بالعدوان الثلاثى على مصر (إنجلترا وفرنسا وإسرائيل). وفى هذا الجو لقيت من **أيزنك** ومن الأساتذة العاملين معه كل رعاية بشكل غاية فى الرقى، على أساس أننا نحن العلماء لا يجوز لنا أن نتأثر سلبا بأحداث السياسة العملية وتقلبات الساسة، وكانوا (الأساتذة) جميعا يعتذرون لى صراحة وبشجاعة عن أفعال حكومتهم (المحافظة عندئذ) مؤكدين لى أنهم جميعا صوَّتوا فى الانتخابات الأخيرة لصالح العمال أو الأحرار. وفى هذا الوقت ورد إلىَّ رد جامعة القاهرة برفض طلبى مدَّ المهمة العلمية؛ فلما علم **أيزنك** بذلك أملى على سكرتيرته خطابا موجَّهًا إلى عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة، ولا زلت أحتفظ بصورة لهذا الخطاب، فقد كان خطابا آيةً فيما يمكن أن يصدر عن عالِم يرعى عالما أصغر، وينصح جامعة القاهرة بلغة آيةً فى الوقار والموضوعية بأن رجوعى إلى مصر دون أن أنجز ما سافرت لإنجازه سيكون خسارة بالغة لجميع الأطراف. وبعد أسبوعين أبلغتنى الجامعة بالموافقة، وأكملت ما سعيت إلى استكماله. ولا أظننى فى حاجة لأن أصف الفيض الغامر من المشاعر والأفكار الجميلة التى انتابتنى إزاء هذه الأحداث!

وفى سبتمبر سنة ١٩٥٧ كنتُ فى طريقى إلى مصر أحمل من العلم ما استطعتُ، لكى أؤدى الأمانة نحو تلاميذى بمثل ما أداها الأستاذ نحوى.

واتصلت المكاتبات بيننا، وكانت مكاتبات علمية، غنية فى الوقت نفسه بمشاعر صداقة آية فى الرقى. وعقدتُ النية على أن أعود إلى المعهد نفسه وإلى الأستاذ ذاته بعد ست سنوات لأجدد الاتصال بالمنبع. وفى أغسطس سنة ١٩٦٣ نفَّذت ما عزمتُ عليه، ولقيتُ ترحيبا يشفُّ عن أن الأستاذ وزملاءه أصبحوا يعتبرونني واحدا من أسرة العلماء المنتمين إلى المكان وما يعنيه. وبقيتُ معهم سنة كاملة نعمتُ فيها بالمشاركة البحثية المفعمة بالمودَّة والتقدير والدفء الناتج عن المؤانسة بين العلماء، وكانت النتيجة خمس ورقات علمية نُشرت على أنها فصول فى كتاب يحمل عنوان :«الشخصية: البناء والقياس». وفى سبتمبر من سنة ١٩٦٤ عدتُ إلى مصر وإلى واجباتى نحو جامعتى وتلاميذى.

واتصلت المكاتبات بيننا. واعتدتُ بعد ذلك أن أزور الأستاذ فى مكتبه زيارات قصيرة، لكنها كانت بليغة فيما تحمل من معان ورسائل. وفى أواخر سنة ١٩٩٦ كتب إلىَّ **يوى جيلين U.Gelien** رئيس تحرير الدورية المعروفة باسم «علم النفس فى العالم» يرجونى أن أدير حوارًا مع **أيزنك** لحساب دوريته، فرحبت بالدعوة، وكتبتُ إلى الأستاذ أستأذنه، وردَّ الأستاذ مرحّبًا وقتما أشاء. وقبل أن أقوم بالمهمة مرض الرجل واشتد عليه المرض، إلى أن توفى فى سبتمبر سنة ١٩٩٧. هذه هى قصة علاقتى **بأيزنك**، وهى علاقة تخلَّقت فى ثناياها صداقة رفيعة بمعانيها وقيمها. وعلى الرغم من كل ما بدا عليها من غنى فى وجداناتها، فقد ظلَّت منتظمة داخل إطارها الأصلى، صداقة المريد بالأستاذ.

س: لكم معايير معينة فى اختيار تلاميذكم للدراسات العليا. ما هى هذه المعايير؟

جـ: مسألة اختيار طالب الدراسات العليا مسألة بالغة الأهمية، أو هكذا كانت فى نظرى، وما زالت، لأنها غالبا ما تؤدى بهذا الطالب إلى الانتظام فى سلك هيئة التدريس بالجامعة. لذلك أرى أنها جديرة بأقدار من الاهتمام أكثر مما تحظى به عادةً. وقد حرصتُ فى مباشرتى هذه المهمة أن أكون على وعى

بالأساس الذى يلزمنى أن أقيمها عليه. ورأيتُ فى هذا الصدد أن الأساس ماثل فيما ينطوى عليه العمل الجامعى بحكم القانون واللوائح والأعراف. وهذه المصادر الثلاثة مجمعةٌ على أن العمل الجامعى ينحصر أساسًا فى التدريس والبحث العلمى. وعلى ضوء هذا التصور كنت أضع محكًّاتى التى أشترطُ توفرها، بل وكنت أعيد النظر فى هذه المحكات من حين إلى آخر.

وقد درجتُ فى اختياراتى على أن أقيم وزنا للأخلاق واتزان الشخصية أكثر من اهتمامى بمستوى الذكاء. فإذا اجتمع المستوى الرفيع للذكاء مع الالتزام الخلقى فهذا مرحَّبٌ به، وإلا فالالتزام الخلقى يأتى فى الحسبان أولا. وعندما أتكلم عن الخصال التى تكشف عن الالتزام، أقصد خصالا من قبيل الأمانة، ودماثة الخلق، والحياء (أى أن يكون على استعداد لأن يعرف قدر الغير وقدر نفسه)، والطموح المنضبط. وأنا أُدخل فى اعتبارى كذلك صفات أخرى مثل: الرغبة الحقيقية فى التعلم، والربط الوثيق بين صورة الذات والمهنة الأكاديمية، والاحترام الصادق للعلم والعلماء، والاستعداد لمقاومة المغريات المشتّتة.

س: توجد صورة سلبية راسخة فى أذهان الكثيرين عن علم النفس وما يمكن أن يقدمه بوصفه علمًا؛ فى رأيكم ما العوامل التى أسهمت فى تشكيل هذه الصورة؟

جـ: دعنى أولا أحدد بعض عناصر الصورة السلبية التى تشير إليها فى سؤالك. فمن عناصر هذه الصورة، أن عالم النفس قادر على فهم من يواجه فهمًا تامًّا فى الحال واللحظة، وكأن لديه قدرة حدسية أقرب إلى الحدس الصوفى والعلم اللدنّى. ومن عناصرها أيضا أنه قادر على تفسير كل ما يصدر عن البشر من سلوكيات، وما يدور فى نفوسهم من أسرار ومشاعر، بل وما يخفى عن شعورهم وإدراكهم. ومن عناصرها كذلك أنه قادر على التأثير فى الآخرين كيفما أراد، وفى أى اتجاه يشاء. وأكتفى هنا بهذه العناصر الثلاثة لأنها تكوّن معًا حزمة واحدة، وهى فى مجموعها أقرب إلى ما يقدم فى الإعلام

التلفازى بوجه خاص. ومع الأسف يبدو أن بعض الزملاء مسئولون عنها، كما يبدو أن الإعلام سعيد بها. ومع مزيد من الأسف، فإن ضحايا هذه الصورة يغلب عليهم أنهم المواطنون العاديون الذين يعتمدون فى جزء من ثقافتهم على ما يشبه مرحلة الجمع والالتقاط فى تاريخ الإنسانية، فهم يجمعون فكرة من هنا ويلتقطون عبارة من هناك، وتختلط فى عقولهم المعانى والصور دون أن تستثير لديهم أى بادرة من الحس النقدى.

وهناك عناصر أخرى غير الثالوث الذى ذكرته، ولكن هذه العناصر تتشكل فيها صورة أخرى لا تقل سلبية عن الصورة السابقة، إلا أنها تختلف فيما يتعلق بنوع الجمهور الذى يحملها، فهو جمهور يضم بداخله أعداداً كبيرة من المتعلمين تعليما جامعيا، وهم غالبا ممن تلقوا تدريبهم فى الكليات التى درجنا فى مصر على أن نسميها بالكليات العملية، كالطب والهندسة والصيدلة والزراعة... إلخ. والعنصر الأساسى الذى تتسم به الصورة السلبية لعلم النفس لديهم يتمثل فيما يتصورونه من أن المعرفة التى يقدمها علم النفس معرفة خفيفة الوزن، بمعنى أنها فى مصداقيتها وفى قيمتها العملية ليست من الوزن الثقيل الذى تمتاز به المعرفة العلمية كما يتلقونها أو يقدمونها فى كلياتهم؛ ومن ثم فعلم النفس فى نظرهم إنما يُسمَّى علما على سبيل المجاز، أو بالأحرى هو يشبه العلم، إن لم يكن مجرد لغو فى الحديث. ومما يؤسف له كل الأسف أن هذه العناصر، وغيرها على شاكلتها كثير، تنتهى بأصحابها (من خلال سلسلة طويلة من التفاعلات فى الحياة الاجتماعية) إلى أشكال وأقدار مختلفة من عرقلة التقدم المرجو للعلوم النفسية فى بلادنا، وإلى التعطيل شبه التام للإفادة من تطبيقاتها فى جميع مناحى الحياة الدنيا.

س: كيف تنظر إلى وضع الخدمة النفسية ومكانتها ـ حاليا ـ فى مصر والعالم العربى؟ وما رأيك فى مستقبل هذه الخدمة؟

جـ: لا تزال الخدمة النفسية متعثرة جدا فى العالم العربى كله، مع فروق بين

دوله المختلفة فى هذا الصدد. وأنا أعنى هنا التعثُّر كمـًّا وكيفا، فحيث تتوفر الخدمة نجدها محدودة جدا، وحتى المتوفر منها يتم غالبا على مستوى متواضع. وأنا أفضّل هنا أن أستخدم عبارة «تطبيقات العلوم النفسية» بدلا من عبارة «الخدمة النفسية»، لا لشىء إلا لأن عبارة «تطبيقات العلوم النفسية» تضع الجميع أمام مسئولياتهم وجهًا لوجه، أما عبارة «الخدمة النفسية» فتسمح بقدر كبير من الهروب من هذه المواجهة.

وانطلاقا من هذا التعديل أرجو أن يُنظر بأمانة فى تصريحات معظم المسئولين فى بلادنا العربية؛ فكل مسئول لا يتوقف عن القول بأنه ـ وأننا جميعا ـ نتبع الأسلوب العلمى فى تفكيرنا وفى أعمالنا الإصلاحية والإنشائية، ومع ذلك فما أبعد المسافة بين القول والفعل، وخاصة عندما ننظر إلى أحوال الاستعانة بتطبيقات العلوم الاجتماعية بوجه عام، والعلوم النفسية بوجه خاص. خذ مثلا تطبيقات العلوم النفسية فى ميدان الخدمة الطبية النفسية، ولننظر فى الأحوال كما جرت وتجرى عندنا فى مصر. وأنا أضرب المثل بالوضع فى مصر لكونى مصريا، فأتحاشى بذلك بعض مزالق الحساسية. فقد نجحنا فى مصر منذ منتصف سنة ١٩٦٧ فى إقناع المسئولين بأهمية تطبيقات العلوم النفسية فى مجالات الخدمة الطبية النفسية، وبدأت الدولة فى تعيين الأخصائيين النفسيين أعضاء فى فريق العلاج الطبى النفسى فى مستشفيات الطب النفسى وعياداته التى تديرها الدولة. ومعنى ذلك أنه مضى الآن على اتخاذ هذه الخطوة أكثر من ثلاثين سنة، ومع ذلك فلا يزال الأخصائيون النفسيون يلقون فى مواقعهم كثيرا من العنت من معظم المسئولين، مما يشتت جهودهم؛ فيتجهون بمعظم هذه الجهود إلى الدفاع المتواصل عن كيانهم المعنى، بدلا من أن يتجهوا إلى التحسين والتجويد فى الخدمات التى يقدّمونها. والنتيجة النهائية عزوفٌ من الشباب المؤهلين عن التعيين فى تلك المواقع، وانخفاض مستوى الأداء كما يقدمه شاغلو تلك المواقع. هذا مثال عن مجال واحد من مجالات تطبيق العلوم النفسية، وهو مثال حدث فيه بعض التقدم. وهناك مجالات أخرى (فى مصر أيضا) بدأ التطبيق فيها منذ بضع عشرات من السنين، ولكنه يكاد يكون متوقفا حيث بدأ. مثال ذلك: التطبيق فى

بعض مجالات العمل فى وزارة الشئون الاجتماعية، ثم هناك نوع ثالث من المجالات التى بدأ التطبيق فيها منذ عشرات السنين، ولكنه تراجع عما كان عليه عند البدء. ثم هناك فئة رابعة من المجالات لم يبدأ التطبيق فيها بعد مع أنها حريّةٌ بأن تسعى إلى طلب مجموع الخدمات التى يمكن لهذا التطبيق أن يقدّمها، مثال ذلك: كثير من أقسام الطب العلاجى؛ مثلا: عيادات أمراض القلب، والأمراض الصدرية (كالدرن الرئوى) والأمراض السرطانية... إلخ، ثم هناك فئة خامسة من المجالات لم يخطر على أذهان المسئولين فيها أن يفكروا أو يتساءلوا حول إمكانية الاستعانة بتطبيقات العلوم النفسية سعيا وراء تحقيق تحسين ملحوظ فى مستويات الأداء لديهم. مثال ذلك: إدارات المرور، سعيا نحو ترشيد عمليات الترخيص بقيادة السيارات أو المركبات عموما، وسعيا نحو التحليل السليم للكيفية التى تقع بها كثير من حوادث المرور، ومثال ذلك أيضا إدارات السجون... إلخ. وأستطيع أن أحصى لك أمثلة أخرى كثيرة. وما زلت إلى هنا أتكلم عن الأحوال عندنا فى مصر. فإذا انتقلت إلى الحديث عن نظائر هذه الأحوال فى سائر الدول العربية، فالمعلومات المتوفّرة لدىّ تشير إلى أن الأمر فيها لا يختلف عن ذلك كثيرا.

ماذا وراء هذه الأوضاع ؟ وراءها عوامل بالغة التعدد والتعقد، ولكن المقام لا يسمح بالدخول فى حصرها وتشريح السياق الذى يحتوى عليها ويزكّيها. والمهم هنا أن نكتفى بالحد الأدنى من فهم ما يحدث حولنا، فالمسئولون قد يكونون أبرياء أحيانا، ومن ثم تقع مسئولية هذا التعطيل على عاتق الزملاء المتخصصين، وتتلخص عندئذ فى الدعوة ورفع الوعى بأهمية التطبيقات النفسية المطلوبة.. والمسئولون قد يكونون على علم، ولكن لا تتوفر لديهم إرادة التغيير، وهنا يكون من مسئوليات زملاء التخصص المثابرة على تكرار الدعوة وتكرار الشرح. الشىء المهم فى هذا المقام هو الدعوة التى يجب أن يتولاها كلّ مَن يعنيهم الأمر، سواء أكانوا ذوى علم أم كانوا ذوى سلطة. والمهم فى هذا المقام أن نعى أن القدر المحدود من التقدم الذى حققته العلوم النفسية فى أوطاننا على المستوى الأكاديمى لا يجوز أن يبقى مبتور الصلة بأى منفعة تطبيقية له.

س: حصلتَ على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية منذ عشر سنوات؛ فماذا تركتْ هذه الجائزة لديكم من انطباعات؟

جـ: كان رد الفعل المباشر عندى هو السرور، وهذا أمر طبيعى. ولكن الأهم من ذلك هو رد الفعل غير المباشر، أعنى ما استثار شعورى باستحقاق الجائزة من أفكار ووجدانات ظلَّت تتوالى علىَّ لأيام وأسابيع وأشهر.

كان من أهم الأفكار التى وردت على ذهنى عندئذ شعورى بأن هذا قرار عادل؛ فقد اجتهدتُ فعلا فى علمى وفى مهنتى قدر الاستطاعة، واجتهدتُ بأمانة وصدق لا بمظهرية كاذبة، فلا أنا خدعتُ نفسى ولا خدعتُ الغير، ومن ثم فالقرار هنا عادل. وفى خطوة تالية، وكردّ فعل لشعورى بعدالة القرار، أحسستُ بأن الذين أصدروا القرار جديرون بالاحترام والتبجيل بكل ما تحمل هاتان الكلمتان من معانٍ، لأننى حقا وصدقًا لم أسعَ إلى الحصول على هذه الجائزة، لم أسع بشكل مباشر ولا بصورة غير مباشرة. وقد رسخ فى ذهنى، نتيجة للتأمل فيما انطوى عليه هذا الموقف من معانٍ، أنه عند مستوى معيَّن من الكم والكيف يمكن لعمل الشخص أن يبثَّ أصداءه لتصل إلى آفاق لم تكن فى حسبانه، وأنه مهما قيل عن انتشار الفساد فى نفوس البشر من حولنا، فلأمر ما تظل معظم النفوس تحمل فى طياتها أقدارًا من عناصر الخير تنتظر حلول لحظة صدق لتكشف فيها عن نفسها. وتداعت عندى أفكار ومشاعر من هذا القبيل لا حصر لها، وربما كان من أهم التداعيات التى تمكنت من نفسى أننى شعرت بأن هذا الحدث ـ أعنى منحى الجائزة ـ ضاعف من شعورى بالمسئولية الاجتماعية عن الدور الذى ارتضيتُ لنفسى أن أؤديه باسم العلم، أو المهنة، أو الالتزام الاجتماعى.

س: ما خططك المستقبلية التى تنوى القيام بها فى مجال البحث العلمى؟ وما هى الموضوعات التى كنت تريد بحثها ولم يتسنَّ لك القيام بها؟

جـ: الأولوية عندى لاستمرار بحوثى فى مجال تعاطى المخدرات، لأن هذا المشروع يحمل فى ذاته عددا من القيم؛ فهو إلى جانب قيمته الأصلية بوصفه

مصدرا للمعلومات الموثَّقة منهجيا، يحمل فى ذاته قيمة من حيث كونه مدرسة وطنية وقومية للبحث العلمى كبير الحجم، طويل العمر، منضبط الأداء. وقد امتد الاعتراف به والاعتماد عليه إلى دوائر التخصص الدقيق فى الخارج، وقد تخرج فى هذه المدرسة عدد لا بأس به من الباحثين الوطنيين سعدتُ بعملهم معى على امتداد ما يقرب من أربعين سنة، وسوف تظل سيرة هذه المدرسة ومنشوراتها ذُخرًا لهؤلاء المريدين الزملاء، ولتلاميذهم من بعدهم. لهذه الأسباب وما تنطوى عليه من معانٍ شديدة الثراء يحتل هذا البرنامج البحثى مركز الصدارة فى اهتماماتى، وسيظل كذلك حتى يتم تسليمه إلى من هم أهل لحمل الأمانة.

ويحتل المرتبة الثانية فى اهتماماتى مشروعى لتسجيل خلاصة الخبرة التى تحققت لى من خلال عملى فى العيادة النفسية، وقد امتد بى هذا العمل منذ منتصف سنة ١٩٥٩ (تاريخ الترخيص لى بممارسة المهنة). وقد بدأت العمل فعلا فى تنفيذ هذا المشروع، وأرجو أن أنال فيه من التوفيق ما يكافئ وزنه فى نفسى.

أما المجال الذى حلمتُ بالعمل فيه ولكن لم يقدَّر ذلك لى، فهو مجال تحقيق المخطوطات العربية القديمة التى عالج فيها العلماء العرب القدامى موضوعات ترشحها للتصنيف داخل تاريخ الفكر السيكولوجى. وتحت هذا البند يبدو أنه توجد ثروة كبيرة، وهى توجد فى شكل مخطوطات أو مطبوعات شبه شعبية غير محققة، وهى جديرة بأن يتوفر على تحقيقها عشرات من باحثينا المصريين والعرب جميعا، على أن يجتمع لهؤلاء العلم السيكولوجى المدقّق، والمهارات اللازمة لتحقيق التراث تحقيقا أمينا. أما لماذا لم يقدَّر لى الإنتاج فى هذا الحقل، فوراء ذلك قصص كثيرة لا قصة واحدة، ولكن المقام لا يسمح بسردها. وقد رأيتُ فى نهاية المطاف أن أضعف الإيمان يقتضينى أن أشد اهتمام الزملاء والمريدين إلى أهمية العمل فى هذا الحقل، خاصةً وأنهم سوف يكونون بذلك من أصحاب الفضل فى إكمال كتابة التاريخ الكامل للعلوم النفسية الحديثة؛ فلا يعقل أن يظل الغربيون يكتبون هذا التاريخ بادئين **بأفلاطون وأرسطو وجالينوس** ليقفزوا بعد ذلك مباشرة إلى **فيبر و فخنر وهلمهولتز**، دون أن يوردوا ذكرًا للحلقات الوسطى التى شغلها أمثال **ابن سينا وابن الهيثم**.